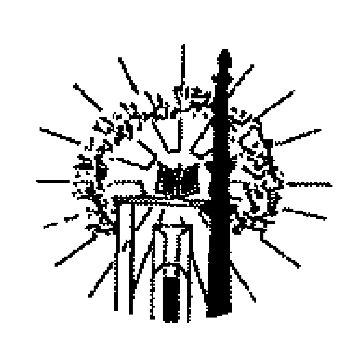


من مطبوعات الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام ابن تيمية

تأليف العلامة
محمد خليل هراس
المدرس بكلية أصول الدين

راجعه الأستاذ الكبير
عبد الرازق عفيفي
رئيس أنصار السنة المحمدية

توزيع وإهداء
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الطبعة الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، واشهد ان لا اله الا الله قيوم السموات والارضين واصلى واسلم على رسوله محمد خاتم الانبياء والمرسلين وبعد : فكتاب شرح العقيدة الواسطية لفضيلة الاستاذ الشيخ محمد خليل هراس من أنفس الشروح ، واوضحها بيانا واخصرها عبارة ، الا انه وقع فى الطبعة الاولى بعض اخطاء استدركت فى الطبعة الثانية بارشاد سماحة الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ مفتى المملكة العربية السعودية ، جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيرا وبذلك كانت هذه الطبعة ممتازة عن سابقتها . أسأل الله أن ينفع بها وبشرحها المسلمين .

عبد الرازق عفيفى

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على اشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد الله ورسوله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

(اما بعد) فلما كانت العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله من اجمع ما كتب فى عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار فى اللفظة ودقة فى العبارة ، وكانت تحتاج فى كثير من مواضعها الى شرح يجلى غوامضها ويزيح الستار عن مكنون جواهرها ، ويكون مع ذلك شرحا بعيدا من الاسهاب والتطويل والاملال بكثرة النقول حتى يلائم مدارك الناشئين ويعطيهم زبدة الموضوع فى سهولة ويسر .

فقد استخرت الله تبارك وتعالى ، واقدمت على هذا العمل رغم كثرة الشواغل وزحمة الصوارف ، سائلا الله عز وجل أن ينفع به كل من قراه وان يجعله خالصا لوجهه انه قريب مجيب .

محمد خليل هراس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اختلفت العلماء فى البسملة ، هل هى آية من كل سورة افتتحت بها ، أو هى آية مستقلة أنزلت ، للفصل بها بين السور ، وللتبرك بالابتداء بها ، والمختار القول الثانى .

واتفقوا على انها جزء آية من سورة النمل وعلى تركها فى أول سورة براءة لانها جعلت هى والانفال كسورة واحدة .

والباء فى بسم للاستعانة ، وهى متعلقة بمحذوف قدره بعضهم فعلا وقدره بعضهم اسما ، والقولان متقاربان وبكل ورد القرآن قال تعالى (اقرأ باسْم ربك) وقال (باسم الله مجريها) .

ويحسن جعل المقدر متأخرا ، لان اسم احق بالتقديم ولان تقديم الجار والمجرور يفيد اختصاص الاسم الكريم بكونه متبركا به ، والاسم هو اللفظ الموضوع لمعنى تعيينا له أو تمييزا » .

واختلف فى أصل اشتقاقه ، فقيل انه من السمة بمعنى العلامة وقيل من السمو وهو المختار وهمزته همزة وصل ، وليس الاسم نفس المسمى كما زعم بعضهم ، فان الاسم هو اللفظ الدال ، والمسمى هو المعنى المدلول عليه بذلك الاسم .

وليس هو كذلك نفس التسمية فانها فعل المسمى ، يقال سميت ولدى محمدا مثلا .

وقول بعضهم ان لفظ الاسم هنا مقحم لان الاستعانة انما تكون بالله عز وجل لا باسمه ، ليس بشىء ، لان المراد ذكر الاسم الكريم باللسان كما فى قوله (سبح اسم ربك الاعلى) اى سبحه ناطقا باسم ربك متكلما به ، فالمراد التبرك بالابتداء بذكر اسمه تعالى — واسم الجلالة ، قيل انه اسم جامد غير مشتق ، لان الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها ، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له ، فهو كسائر

الاعلام المحضة التى لا تتضمن صفات تقوم بمسمياتها .

والصحيح انه مشتق ، واختلف فى مبدا اشتقاقه ، فقيل من أَلِـهَ يَأْلَه أُلُوهَةً وإلاَهَة وأُلُوهِيَّة . بمعنى عبد عبادة ، وقيل من أَلِـهَ بكسر اللام يَأْلَه بفتحها أَلهــاً اذا تحير ، والصحيح الاول ، فهو إلــه بمعنى مَأْلُوه اى معبود ، ولهذا قال ابن عباس رضى الله عنهما : الله ذو الإلَهِيَّة والعبودية على خلقه اجمعين ، وعلى القــول بالاشتقاق يكون وصفا فى الاصل ، ولكن غلبت عليه العَلَمية فتجرى عليه بقية الاسماء اخبارا واوصافا ، يقال : الله رحمن رحيم سميع عليــم ، كما يقال : الله الرحمن الرحيم السـخ .

والرحمن الرحيم اسمان كريمان من اسمائه الحسنى دالان على اتصافه تعالى بصفة الرحمة ، وهى صفة حقيقية له سبحانه على ما يليق بجلاله ولا يجوز القول بان المراد بها لازمها كارادة الاحسان ونحوه كما يزعم المعطلة ، وسياتى مزيد بيان لذلك ان شاء الله .

واختلفت فى الجمع بينهما فقيل المراد بالرحمن الذى وسعت رحمته كل شىء فى الدنيا ، لان صيغة فعلان تدل على الامتلاء والكثرة ، والرحيم الذى يختص برحمته المؤمنين فى الآخرة وقيل العكس .

وقد ذهب العلامة ابن القيم رحمه الله الى ان الرحمن دال على الصفة القائمة بالذات ، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم ، ولهذا لم يجىء الاسم الرحمن متعديا فى القرآن ، قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) ولم يقل رحمانا ، وهذا احسن ما قيل فى الفرق بينهما .

وروى عن ابن عباس انه قال : هما اسمان رقيقان احدهما ارق من الآخر ، ومنع بعضهم كون الرحمن فى البسملة نعتا لاسم الجلالة لانه علم آخر لله لا يطلق على غيره والاعلام لا ينعت بهــا .

والصحيح انه نعت له باعتبار ما فيه من معنى الوصفية فالرحمن

اسمه تعالى ووصفه ولا تناف اسميته وصفيته ، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله ، ومن حيث هو اسم ورد فى القرآن غير تابع بل ورود الاسم العلم كقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى)

(الحَمدُ لِلَّهِ) روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال « كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عَلَيَّ فهو اقطع ابتر ممحوق البركة » وورد مثل ذلك فى البسملة ولهذا جمع المؤلف بينهما عملا بالروايتين ولا تعارض بينهما فان الابتداء قسمان حقيقى واضافى والحمد ضد الذم يقال حمدت الرجل احمده حمدا ، ومحمدا ومحمدة فهو محمود وحميد ، ويقال حمد الله بالتشديد اثنى عليه المرة بعد الاخرى وقال الحمد لله .

والحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، نعمة كان أو غيرها ، يقال حمدت الرجل على انعامه وحمدته على شجاعته ، واما الشكر فعلى النعمة خاصة ويكون بالقلب واللسان والجوارح قال الشاعر :

أَفَادَتكُمُ النَّعمَاءُ مِنِّـي ثَلَاثَـةً يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا

وعلى هذا فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه ، يجتمعان فى الثناء باللسان على النعمة ، وينفرد الحمد فى الثناء باللسان على ما ليس بنعمة من الجميل الاختيارى ، وينفرد الشكر بالثناء بالقلب والجوارح على خصوص النعمة . فالحمد اعم متعلقا واخص آلـة والشكر بالعكس .

واما الفرق بين الحمد والمدح فقد قال ابن القيم ان الحمد اخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه فلابد فيه من اقتران الارادة بالخبر بخلاف المدح فانه اخبار مجرد ، ولذلك كان المدح اوسع

تناولا لانه يكون للحي وللميت وللجماد ايضا .

وال في الحمد للاستغراق ، ليتناول كل افراد الحمد المحققة والمقدرة وقيل للجنس ومعناه أن الحمد الكامل ثابت لله ، وهذا يقتضي ثبوت كل ما يحمد عليه من صفات كماله ونعوت جماله ، اذ مَن عَدِمَ صفات الكمال فليس بمحمود على الاطلاق ، ولكن غايته انلايكون محمودا من كل وجه وبكل اعتبار بجميع انواع الحمد الا من حازصفات الكمال جميعها .

الرسول في اللغة هو من بعث برسالة . يقال ارسله بكذا ، اذا طلب اليه تأديته وتبليغه ، وجمعه رسل بسكون السين ، ورسل بضمها وفي لسان الشرع انسان ذكر حر أوحي اليه بشرع وامر بتبليغه ، فان اوحي اليه ولم يؤمر بالتبليغ فهو نبي ، فكل رسول نبي ولا عكس فقد يكون نبيا غير رسول .

والمراد بالرسول المضاف الى ضمير الرب هنا محمد صلى الله عليه وسلم . والهدى في اللغة : البيان والدلالة كما في قوله تعالى : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فان المعنى بَيَّنا لهم ، وكما في قوله (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) .

والهدى بهذا المعنى عام لجميع الناس ، ولهذا يوصف به القرآن كما في قوله تعالى (ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم) ويوصف به الرسول صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) .

وقد يأتي الهدى بمعنى التوفيق والالهام ، فيكون خاصا بمن يشاء الله هدايته ، قال تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) ولهذا نفاه الله عن رسوله ، قال تعالى (انك لا تهدي

من احببت ولكن الله يهدى من يشاء) .

والمراد بالهدى هنا كل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الاختيارات الصادقة والايمان الصحيح والعلم النافع والعمل الصالح .

والدين يأتى لعدة معان ، منها الجزاء كما فى قوله تعالى (مالك يوم الدين) ومنه قولهم (كما يدين الفتى يدان) .

ومنها الخضوع والانقياد ، يقال : دان له بمعنى ذل وخضع ، ويقال دان الله بكذا أو على كذا بمعنى اتخذه دينا يعبده بـه .

والمراد بالدين هنا جميع ما ارسل الله به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاحكام والشرائع ، اعتقادية كانت أم قولية أم عملية ، واضافته الى الحق من اضافة الموصوف الى صفته ، أى الدين الحق ، والحق مصدر حق يحق اذا ثبت ووجب . فالمراد به الثابت الواقع ، ويقابله الباطل الذى لا حقيقة لـه .

اللام فى قوله ليظهره لام التعليل وهى متعلقة بارسل ، وهو من الظهور بمعنى العلو والغلبة ، اى ليجعله عاليا على الاديان كلها بالحجة والبرهان . وال فى الدين للجنس ، فيدخل فيه كل دين باطل ، وهو ماعدا الاسلام . والشهيد فعيل ، وهو مبالغة من شهد ، وهو اما من الشهادة بمعنى الاخبار والاعلام ، او من الشهادة بمعنى الحضور والمعنى (وكفى بالله شهيدا) مخبرا بصدق رسوله أو حاضرا مطلعا لا يغيب عنه شيء .

والمعنى الاجمالى لما تقدم أن جميع أوصاف الكمال ثابتة لله على اكمل الوجوه وأتمها .

ومما يحمد عليه سبحانه نعمه على عباده التى لا يحصى احد من الخلق عدها . واعظمها ارساله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين ، وبشرى للمتقين ، ليظهره على جميع الاديان بالحجة والبرهان ، والعز والتمكين والسلطان ، وكفى بالله شهيدا على صدق رسوله وحقيقة مـا جاء به .

وشهادته سبحانه تكون بقوله وفعله وتأييده لرسوله بالنصر والمعجزات والبراهين المتنوعة على أن ما جاء به هو الحق المبين .

الشهادة : الاخبار بالشئ عن علم به واعتقاد لصحته وثبوته ، ولا تعتبر الشهادة الا اذا كانت مصحوبة بالاقرار والاذعان وواطـا القلب عليها اللسان ، فان الله قد كذب المنافقين فى قولهم (نشهـد انك لرسول الله) مع انهم قالوا بالسنتهم .

ولا اله الا الله هى كلمة التوحيد التى اتفقت عليها كلمة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ، بل هى خلاصة دعواتهم وزبدة رسالاتهم ، وما من رسول منهم الا جعلها مفتتح امره وقطب رحاه ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم « أمرت أن اقاتل الناس حتـى يقولوا) : لا اله الا الله . فاذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » .

ودلالة هذه الكلمة على التوحيد باعتبار اشتمالها على النفـى والاثبات المقتضى للحصر وهو ابلغ من الاثبات المجرد ، كقولنا الله واحد مثلا فهى تدل بصدرها على نفى الالهية عما سوى الله تعالى ، وتدل بعجزها على اثبات الالهية له وحده .

ولابد فيها من اضمار خبر تقديره لا معبود بحق موجود الا الله ، وأما قوله وحده لا شريك له : فهو تأكيد لما دلت عليه كلمة

اقراراً بِهِ وَتَوحِيداً ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبدُهُ وَرَسُولُهُ

التوحيد وقوله اقرارا به مصدر مؤكد لمعنى الفعل اشهد ، والمراد اقرار القلب واللســـان .

وقوله توحيدا أى اخلاصا لله عز وجل فى العبادة ، فالمـــراد به التوحيد الارادى الطلبى المبنى على توحيد المعرفة والاثبات .

وجعل الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالرسالة والعبودية مقرونة بالشهادة لله بالتوحيد للاشارة الى انه لابد من كل منهما ، فلا تغنى احداهما عن الاخرى ، ولهذا قرن بينهما فى الاذان وفى التشهد . وقال بعضهم فى تفسير قوله تعالى (ورفعنا لك ذكرك) يعنى لا أذكر الا ذكرت معـــــى .

وانما جمع له بين وصفى الرسالة والعبودية لانهما اعلى ما يوصف به العبد » والعبادة هى الحكمة التى خلق الله الخلق لاجلهـــا كما قال تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) فكمال المخلوق فى تحقيق تلك الغاية ، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ، ولهذا ذكر الله نبيه بلقب العبد فى اسمى أحواله واشرف مقاماته كالاسراء به وقيامه بالدعوة الى الله والايحاء اليه والتحدى بالذى أنزل عليه ، ونبه بوصف العبودية أيضا الى الرد على اهل الغلو الذين قد يتجاوزون بالرسول صلى الله عليه وسلم قـــدره ويرفعونه الى مرتبة الالوهية . كما يفعل ضلال الصوفية قبحهم الله ، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وانما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » والمقصود أن هذه الشهادة تتضمن اعتراف العبد بكمال عبوديته صلى الله عليه وسلم لربه وكمال رسالته ، وانه فاق جميع البشر فى كل خصلة كماله ، ولا تتم هذه الشهادة حتى يصدقه العبد فى كل ما أخبر به ، ويطيعه فى

كل ما أمر به ، وينتهي عما نهى عنـــه .

الصلاة فى اللغة الدعاء ، قال تعالى « وَصَلِّ عليهم ان صلاتك سكن لهم » واصح ما قيل فى صلاة الله على رسوله هو ما ذكره البخارى فى صحيحه عن ابى العالية قال : صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عنـــد الملائكـــة .

والمشهور ان الصلاة من الملائكـــة الاستغفار كما فى الحديـــث الصحيح « والملائكة يصلون على احدكم ما دام فى مجلســه الذى فيه » يقولون اللهم اغفر له اللهم ارحمه » ومن الآدميين التضرع والدعاء

وآل الشخص هم من يمتون اليه بصلة وثيقة من قرابة ونحوها وآله صلى الله عليه وسلم يراد بهم أحيانا من حرمت عليهم الصدقة وهم بنو هاشم وبنو المطلب ويراد بهم أحيانا كل من تبعه على دينه ، واصل (آل) اهل ، ابدلت الهاء همزة فتوالت همزتان فقلبت الثانية منهما الفا ويصغر على اهيل او اويل ، ولا يستعمل الا فيما شرف غالبا فلا يقال آل الاسكاف وآل الحجام ، والمراد بالصحب اصحابه صلى الله عليه وسلم وهم كل من لقيه حال حياته مؤمنا ومات على ذلـــــك .

والسلام اسم مصدر من سلم تسليما عليه ، بمعنى طلب له السلامة من كل مكروه ، وهو اسم من اسمائه تعالى ، ومعناه البراءة والخلاص من النقائص والعيوب أو الذى يسلم على عباده المؤمنين فى الآخـــــرة .

تَسْلِيماً مَزِيداً . أَمَّا بَعْدُ فَهَذَا اعتِقَادُ
الفِرقَةِ النَّاجِيَةِ المنصُورَةِ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ؛ أهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ،

ومزيدا صفة لتسليما وهو اسم مفعول من زاد المتعدى والتقدير مزيدا فيه (أما بعد) كلمة يؤتى بها للدلالة على الشروع فى المقصود ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يستعملها كثيرا فى خطبه وكتبه . وتقديرها عند النحويين مهما يكن من شىء بعد . والاشارة بقوله (هذا) الى ما تضمنه هذا المؤلف من العقائد الايمانية التى اجملها فى قوله (وهو الايمان بالله الـخ) والاعتقاد مصدر اعتقد كذا اذ اتخذه عقيدة له ، بمعنى عقد عليه الضمير والقلب ودان لله به ، وأصله من عقد الحبل ، ثم استعمل فى التصميم والاعتقاد الجازم .

والفرقة بكسر الفاء الطائفة من الناس ، ووصفها بأنها الناجية المنصورة أخذا من قوله عليه السلام (لا تزال طائفة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله) .

ومن قوله فى الحديث الآخر « ستفترق هذه الامة على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار الا واحدة ، وهى من كان على مثل مـــا أنا عليه اليوم وأصحابـــى » .

وقوله (أهل السنة والجماعة) بدل من الفرقة ، والمراد بالسنة الطريقة التى كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قبل ظهور البدع والمقالات . والجماعة فى الاصل القوم المجتمعون ، والمراد بهم هنا سلف هذه الامة من الصحابة والتابعين الذين اجتمعوا على الحق الصريح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى اللـــه عليـــه وسلـــم .

هذه الامور الستة هى أركان الايمان فلا يتم ايمان أحد الا اذا

وَهُوَ الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالبَعثِ بَعدَ الموتِ والإِيمَانِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ .

آمن بها جميعا على الوجه الصحيح الذى دل عليه الكتاب والسنة ، فمن جحد شيئا منها او آمن به على غير هذا الوجه فقد كفر ، وقد ذكرت كلها فى حديث جبريل المشهور حين جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فى صورة اعرابى يسأله عن الاسلام والايمان والاحسان ، فقال « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت وبالقدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله تعالى .

(والملائكة) جمع ملاك واصله مألك من الألوكة وهى الرسالة وهم نوع من خلق الله عز وجل اسكنهم سماواته ، ووكلهم بشئون خلقه ووصفهم فى كتابه بانهم لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وانهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون . فيجب علينا الايمان بما ورد فى حقهم من صفات واعمال فى الكتاب والسنة ، والامساك عما وراء ذلك ، فان هذا من شئون الغيب التى لا نعلم منها الا ما علمنا الله ورسوله .

والكُتُب جمع كِتاب « وهو من الكَتْبِ بمعنى الجمع والضم » والمراد بها الكتب المنزلة من السماء على الرسل عليهم الصلاة والسلام . والمعلوم لنا منها صحف ابراهيم والتوراة التى انزلت على موسى فى الالواح والانجيل الذى انزل على عيسى ، والزبور الذى انزل على داود ، والقرآن الكريم الذى هو آخرها نزولا ، وهو المصدق لها والمهيمن عليها ، وما عداها يجب الايمان به اجمالا .

والرسل جمع رسول « وقد تقدم انه من اوحى الله اليه بشرع وأمره بتبليغه » وعلينا ان نؤمن تفصيلا بمن سمى الله فى كتابه منهم وهم خمسة وعشرون ، ذكرهم الشاعر فى قوله :

رفي تِلـــكَ حُجَّتُنَا مِنهُـــم ثَمَانِيَةٌ مِن بَعدِ عَشرٍ وَيَبقَى سَبعَةٌ وَهُمُ
إِدرِيسُ هُودُ شُعَيبٌ صَالِحٌ وَكَذا ذُو الكِفلِ آدَمُ بِالمُختارِ قَد خُتِمُوا

وأما من عدا هؤلاء من الرسل والانبياء فنؤمن بهم اجمالا على معنى الاعتقاد بنبوتهم ورسالتهم دون أن نكلف انفسنا البحث عن عدتهم وأسمائهم ، فان ذلك مما اختص الله بعلمه ، قال تعالى (ورسلا قد قصصنا عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك) .

ويجب الايمان بانهم بلغوا جميع ما ارسلوا به على ما امرهم الله عز وجل ، وبينوه بيانا لا يسع احدا ممن ارسلوا اليه جهله ، وأنهم معصومون من الكذب والخيانة ، والكتمان والبلادة ، وان افضلهم أولو العزم ، والمشهور أنهم محمد وابراهيم وموسى وعيسى ونوح ، لانهم ذكروا معا فى قوله تعالى (واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم) وقوله (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه)

والبعث فى الاصل الاثارة والتحريك ، والمراد به فى لسان الشرع اخراج الموتى من قبورهم أحياء يوم القيامة لفصل القضاء بينهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره . ويجب الايمان بالبعث على الصفة التى بينها الله فى كتابه ، وهو أنه جمع ما تحلل من اجزاء الاجساد التى كانت فى الدنيا وانشاؤها خلقـا جديدا واعادة الحياة اليها ، ومنكر البعث الجثمانى كالفلاسفة والنصارى كفار ، وأما من أقر به ولكنه زعم ان الله يبعث الارواح فى أجسام غير الاجسام التى كانت فى الدنيا فهو مبتدع وفاسق .

وأما القدر فهو فى الاصل مصدر ، تقول قدرت الشىء بفتح الدال وتخفيفها ، اقدره بكسرها قدرا وقدرا اذا احطت بمقداره

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ ، الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ : فِي كِتابِهِ ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِن غَيرِ تَحرِيفٍ وَلاَ تَعطِيلٍ وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلاَ تَمثِيلٍ .

والمراد به فى لسان الشرع ان الله عز وجل علم مقادير الاشياء وازمانها ازلا ، ثم اوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها ، وانه كتبها فى اللوح قبل احداثها ، كما فى الحديث « أول ما خلق الله القلم ، فقال له اكتب ، قال وما أكتب ؟ قال اكتب كل ما هو كائن » وقال تعالى (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبراهـا) .

وقوله (ومن الايمان بالله الخ) هذا شروع فى التفصيل بعد الاجمال ومن هنا للتبعيض ، والمعنى : ومن جملة ايمان اهل السنة والجماعة بالاصل الاول الذى هو اعظم الاصول واساسها ، وهو الايمان بالله أنهم يؤمنون بما وصف به نفسه الخ .

وقوله (من غير تحريف) متعلق بالايمان قبله يعنى أنهم مؤمنون بالصفات الالهية على هذا الوجه الخالى من كل هذه المعانى الباطلة اثباتا بلا تمثيل ، وتنزيها بلا تعطيل .

والتحريف فى الاصل مأخوذ من قولهم : حرفت الشىء عن وجهه حرفا ، من باب ضرب اذا أملته وغيرته والتشديد للمبالغة .

وتحريف الكلام امالته عن المعنى المتبادر منه الى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ الا باحتمال مرجوح ، فلابد فيه من قرينة تبين أنـه المـراد .

واما التعطيل فهو مأخوذ من العطل الذى هو الخلو والفراغ والترك ، ومنه قوله تعالى (وبئر معطلة) اى اهملها اهلها وتركوا وردها ، والمراد به هنا نفى الصفات الالهية ، وانكار قيامها بذاته

تعالى . فالفرق بين التحريف والتعطيل أن التعطيل نفى للمعنى الحق الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وأما التحريف فهو تفسير النصوص بالمعانى الباطلة التى لا تدل عليهـــا .

والنسبة بينهما العموم والخصوص المطلق ، فان التعطيل أعم مطلقا من التحريف بمعنى أنه كلما وجد التحريف وجد التعطيل دون العكس ، وبذلك يوجدان معا فيمن أثبت المعنى الباطل ونفى المعنى الحق ، ويوجد التعطيل بدون التحريف فيمن نفى الصفات الواردة فى الكتاب والسنة وزعم أن ظاهرها غير مراد ولكنه لم يعين لهـــا معنى آخر وهو ما يسمونه بالتفويض .

ومن الخطأ القول بأن هذا هو مذهب السلف كما نسب ذلك اليهم المتأخرون من الاشاعرة وغيرهم ، فان السلف لم يكونوا يفوضون فى علم المعنى ولا كانوا يقرأون كلاما لا يفهمون معناه ، بل كانوا يفهمون معانى النصوص من الكتاب والسنة ، ويثبتونها لله عـــز وجل ، ثم يفوضون فيما وراء ذلك من كنه الصفات أو كيفياتهـــا كما قال مالك حين سئل عن كيفية استوائه تعالى على العرش : « الاستواء معلوم والكيف مجهول » .

وأما قوله (ومن غير تكييف ولا تمثيل) فالفرق بينهمـــا أن التكييف أن يعتقد أن صفاته تعالى على كيفية كذا ، أو يسأل عنها بكيــــف .

وأما التمثيل فهو اعتقاد أنها مثل صفات المخلوقين ، وليس المراد من قوله من غير تكييف أنهم ينفـــون الكيف مطلقا ، فـــان كل شيء لابد أن يكون علـــى كيفية ما ، ولكن المراد أنهم ينفـــون علمهم بالكيف اذ لا يعلم كيفية ذاته وصفاته الا هو سبحانه .

فَلَا يَنفُونَ عَنهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفسَهُ ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهِ وَلَا يُلحِدُونَ فِي أَسماءِ اللهِ وَآيَاتِهِ ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُون صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلقِهِ

قوله (ليس كمثله) هذه الآية المحكمة من كتاب الله عز وجل هي دستور أهل السنة والجماعة في باب الصفات فان الله عز وجل قد جمع فيها بين النفي والاثبات ، فنفى عن نفسه المثل واثبت لنفسه سمعا وبصرا . فدل هذا على أن المذهب الحق ليس هو نفي الصفات مطلقا كما هو شان المعطلة ولا اثباتها مطلقا ، كما هو شان الممثلة ، بل اثباتها بلا تمثيل . وقد اختلف في اعراب (ليس كمثله شيء) على وجوه اصحها ان الكاف صلة زيدت للتاكيد كما في قول الشاعر :

ليس كمثل الفتى زهير خلق يوازيه في الفضائل

وقوله (فلا ينفون عنه الخ) تفريع على ما قبله ، فانهم اذا كانوا يؤمنون بالله على هذا الوجه فلا ينفون ولا يحرفون ، ولا يكيفون ولا يمثلون .

والمواضع جمع موضع والمراد بها المعاني التي يجب تنزيل الكلام عليها لانها هي المتبادرة منه عند الاطلاق فهم لا يعدلون به عنها .

وأما قوله (ولا يلحدون في أسماء الله وآياته) فقد قال العلامة ابن القيم رحمه الله : والالحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها ، مأخوذ من الميل كما يدل عليه مادة (ل ح د) فمنه اللحد وهو الشق في جانب القبر الذي قد مال عن الوسط ، ومنه الملحد في الدين (المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه) ا هـ .

فالالحاد فيها اما أن يكون بجحدها وانكارها بالكلية ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب واخراجها

لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا كُفءَ لَهُ وَلَا نِدَّ لَـــهُ .

عن الحق بالتأويلات الفاسدة ، واما بجعلها اسماء لبعض المبتدعات كالحاد أهل الاتحاد .

وخلاصة ما تقدم ان السلف رضى الله عنهم يؤمنون بكـل ما اخبر الله به عن نفسه فى كتابه وبكل ما أخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم ايمانا سالما من التحريف والتعطيل ، ومن التكييف والتمثيل ويجعلون الكلام فى ذات البارى وصفاته بابا واحدا ، فان الكلام فى الصفات فرع الكلام فى الذات يحتذى فيه حذوه ، فاذا كان اثبات الذات اثبات وجود لا اثبات تكييف فكذلك أثبات الصفات ، وقد يعبرون عن ذلك بقولهم (تمر كما جاءت بلا تأويل) ومن لم يفهم كلامهم ظن ان غرضهم بهذه العبارة هو قراءة اللفظ دون التعرض للمعنى وهو باطل ، فان المراد بالتأويل المنفى هنا هو حقيقة المعنى وكنهـــه وكيفيتـــه .

قال الامام أحمد رحمه الله : « لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه او وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث » .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخارى : « من شبه الله بخلقه كفر ومن جحد ما وصف الله به نفسه كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل » .

قوله (لانه سبحانه لا سمى له الخ) تعليل لقوله فيما تقدم اخبارا عن اهل السنة والجماعة لا يكيفون ولا يمثلون .

ومعنى (لا سمى له) اى لا نظير له يستحق مثل اسمه ، أو لا مسامى له يساميه ، وقد دل على نفيه قوله تعالى فى سورة مريم (هل تعلم له سميا) فان الاستفهام هنا انكارى معناه النفى .

وليس المراد من نفى السمى ان غيره لا يسمى بمثل اسمائه ، فانه هناك اسماء مشتركة بينه وبين خلقه ، ولكن المقصود ان هذه الاسماء اذا سمى الله بها كان معناها مختصا به لا يشركه فيه غيره ، فان الاشتراك انما هو فى مفهوم الاسم الكلى ، وهذا لا وجود له الا فى الذهن ، واما فى الخارج فلا يكون المعنى الا جزئيا مختصا ، وذلك بحسب ما يضاف اليه ، فان اضيف الى الرب كان مختصا به لا يشاركه فيه العبد ، وان اضيف الى العبد كان مختصا به لا يشاركه فيـه الـرب .

واما الكفء فهو المكافىء المساوى ، وقد دل على نفيه قولـه تعالى (ولم يكن له كفوا احـد) .

واما الند فمعناه المساوى المناوىء قال تعالى (فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون) .

واما قوله (ولا يقاس بخلقه) فالمقصود به انه لا يجـوز استعمال شىء من الاقيسة التى تقتضى المماثلة والمساواة بين المقيس والمقيس عليه فى الشئون الالهيـة .

وذلك مثل قياس التمثيل الذى يعرفه علماء الاصول بانـه الحاق فرع باصل فى حكم الجامع ، كالحاق النبيذ بالخمر فى الحرمة لاشتراكهما فى علة الحكم وهى الاسكار .

فقياس التمثيل مبنى على وجود مماثلة بين الفرع والاصل ، والله عز وجل لا يجوز ان يمثل بشىء من خلقه .

ومثل قياس الشمول المعروف عند المناطقة بانه الاستـدلال بكلى على جزئى بواسطة اندراج ذلك الجزئى مع غيره تحت هذا الكلى . فهذا القياس مبنى على استواء الافراد المندرجة تحت هذا

فَإِنَّهُ أَعلَمَ بِنَفسِهِ وَبِغَيرِهِ وَأَصدَقُ قِيلاً وَأَحسَنُ حَدِيثاً مِن خَلقِهِ ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ بِخِلاَفِ الذِينَ يَقُولُونَ عَلَيهِ مَا لاَ يَعلَمُـونَ)

الكلي ، ولذلك يحكم على كل منها بما حكم به عليه .

ومعلوم انه لا مساواة بين الله عز وجل وبين شيء من خلقه وانما يستعمل فى حقه تعالى قياس الأولى ومضمونه ان كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن ان يتصف به الخالق ، فالخالق أولى به من المخلوق ، وكل نقص تنزه عنه المخلوق فالخالق احق بالتنزة عنه .

وكذلك قاعدة الكمال التى تقول : انه اذا قدر اثنان احدهما موصوف بصفة كمال والآخر يمتنع عليه ان يتصف بتلك الصفة كان الاول اكمل من الثانى ، فيجب اثبات مثل تلك الصفة لله ما دام وجودها كمالا وعدمها نقصا .

قوله (فانه أعلم بنفسه وبغيره — الى قوله — ثم رسله صادقون مصدقون) تعليل لصحة مذهب السلف فى الايمان بجميع الصفات الواردة فى الكتاب والسنة . فانه اذا كان الله عز وجل أعلم بنفسه وبغيره ، وكان أصدق قولا واحسن حديثا ، وكان رسله عليهم الصلاة والسلام صادقين فى كل ما يخبرون به عنه ، معصومين من الكذب عليه والاخبار عنه بما يخالف الواقع . وجب التعويل اذا فى باب الصفات نفيا واثباتا على ما قاله الله وقاله رسوله الذى هو أعلم خلقه به ، وان لا يترك ذلك الى قول من يفترون على الله الكذب ويقولون عليه ما لا يعلمون .

وبيان ذلك أن الكلام انما تقصر دلالته على المعانى المرادة منه لاحد ثلاثة أسباب ، اما لجهل المتكلم وعدم علمه بما يتكلم به ، واما لعدم فصاحته وقدرته على البيان ، واما لكذبه وغشه وتدليسه ونصوص الكتاب والسنة بريئة من هذه الامور الثلاثة من كل وجه

وَلِهَذَا قَالَ (سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ

فكلام الله وكلام رسوله فى غاية الوضوح والبيان ، كما أنه المثـل الاعلى فى الصدق والمطابقة للواقع لصدوره عن كمال العلم بالنسب الخارجية وهو كذلك صادر عن تمام النصح والشفقة ، والحـرص على هداية الخلق وارشادهم .

فقد اجتمعت له الامور الثلاثة التى هـى عناصر الدلالـة والافهام على اكمل وجه . فالرسول صلى الله عليه وسلم أعلم الخلق بما يريد اخبارهم به ، وهو اقدرهم على بيان ذلك ، والافصاح عنه . وهو احرصهم على هداية الخلق واشدهم ارادة لذلك ، فلا يمكـن أن يقع فى كلامه شىء من النقص والقصور بخلاف كلام غيره فانـه لا يخلو من نقص فى احد هذه الامور او جميعها ، فلا يصح أن يعدل بكلامه كلام غيره فضلا عن أن يعدل عنه الى كلام غيره ، فان هذا هو غاية الضلال ومنتهى الخذلان .

قوله (ولهذا قال الخ) تعليل لما تقدم من كون كـلام الله وكلام رسوله اكمل صدقا واتم بيانا ونصحا ، وابعد عن العيوب والآفات من كلام كل احـد .

(وسبحان) اسم مصدر من التسبيح ، الذى هو التنزيـه والابعاد عن السوء ، واصله من السبح الذى هو السرعة والانطلاق والابعاد ، ومنه فرس سبوح اذا كانت شديدة العدو .

واضافة الرب الى العزة من اضافة الموصوف الى صفته ، وهو بدل من الرب قبله ، فهو سبحانه ينزه نفسه عما ينسبه اليه المشركون من اتخاذ الصاحبة والولد ومن كل نقص وعيب .

ثم يسلم على رسله عليهم الصلاة والسلام بعد ذلك للاشارة الى أنه كما يجب تنزيه الله عز وجل وابعاده عن كل شائبة نقص

وَالحَمْدُ لِلهِ رَبِّ العَالَمِين) فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ المُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ ، وَسَلَّمَ عَلَى المُرْسَلِينَ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقصِ وَالعَيبِ . وَهُوَ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفسَهُ بَيْنَ النَّفيِ وَالإِثبَاتِ .

وعيب ، فيجب اعتقاد سلامة الرسل فى اقوالهم وافعالهم من كل عيب كذلك فلا يكذبون على الله ولا يشركون به ولا يغشون اممهم ولا يقولون على الله الا الحق .

قوله (والحمد لله رب العالمين) ثناء منه سبحانه على نفسه بماله من نعوت الكمال وأوصاف الجلال وحميد الفعال ، وقد تقدم الكلام على معنى الحمد فاغنى عن اعادته .

لما بين فيما سبق أن اهل السنة والجماعة يصفون الله عز وجل بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، ولم يكن ذلك كله اثباتا ولا كله نفيا نبه على ذلك بقوله (وهو سبحانه قد جمع الـخ) .

واعلم أن كلا من النفى والاثبات فى الاسماء والصفات مجمل ومفصل . أما الاجمال فى النفى : فهو أن ينفى عن الله عز وجل كل ما يضاد كماله من انواع العيوب والنقائص مثل قوله تعالى (ليس كمثله شىء) (هل تعلم له سميا) (سبحان الله عما يصفون) .

وأما التفصيل فى النفى فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه ، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والضد والجهل والعجز والضلال والنسيان والسِّنَة والنوم والعبث والباطل الـخ .

ولكن ليس فى الكتاب ولا فى السُّنَّة نفى محض ، فان النفى الصرف لا مدح فيه ، وانما يراد بكل نفى فيهما اثبات ما يضاده من الكمال ، فنفى الشريك والند لاثبات كمال عظمته وتفرده بصفات الكمال ، ونفى العجز لاثبات كمال قدرته ، ونفى الجهل لاثبات سعة

فَلَا عُدُولَ لِأَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ المرسَلُونَ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ المستَقِيمُ صِرَاطُ الذِينَ أَنعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

علمه واحاطته ، ونفى الظلم لاثبات كمال عدله ، ونفى العبث لاثبات كمال حكمته ، ونفى السِّنَة والنوم والموت لاثبات كمال حياته وقيوميته وهكذا ، ولهذا كان النفى فى الكتاب والسنة انما يأتى مجملا فى أكثر أحواله بخلاف الاثبات ، فان التفصيل فيه اكثر من الاجمال لانــه مقصـــود لـــذاتـــه .

واما الاجمال فى الاثبات ، فمثل اثبات الكمال المطلق ، والحمد المطلق والمجد المطلق ونحو ذلك ، كما يشير اليه مثل قوله تعالـى (الحمد لله رب العالمين) (ولله المثل الاعلى) .

واما التفصيل فى الاثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت فى الكتاب والسنة ، وهو من الكثير بحيث لا يمكن لاحد أن يحصيـه فان منها ما اختص الله عز وجل بعلمه كما قال عليه الصلاة والسلام « سبحانك لا نحصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفســك » وفى حديث دعاء الكرب « اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفســك او انزلته فى كتابك او علمته احدا من خلقك او استأثرت به فــى علم الغيب عنــدك » .

قوله (فلا عدول الخ) هذا مترتب على ما تقدم من بيان ان ما جاء به الرسل عليهم الصلاة والسلام هو الحق الذى يجب اتباعه ولا يصح العدول عنه ، وقد علل ذلك بأنــه الصراط المستقيم ، يعنى الطريق السوى القاصد الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

والصراط المستقيم لا يكون الا واحداً من زاغ عنه او انحرف وقع فى طريق من طرق الضلال والجور كما قال تعالى (وان هــذا

وَقَد دَخَلَ فِي هَذِهِ الجُملَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفسَهُ فِي سُورَةِ الإِخلَاصِ التِي تَعدِلُ ثُلثَ القُرآنِ .

صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) والصراط المستقيم هو طريق الامة الوسط الواقع بين طرفى الافراط والتفريط ولهذا أمرنا الله عز وجل وعلمنا أن نسأله ان يهدينا هذا الصراط المستقيم فى كل ركعة من الصلاة ، اى يلهمنا ويوفقنا لسلوكه واتباعه فانه صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) .

قوله (وقد دخل الخ) شروع فى ايراد النصوص من الكتاب والسنة المتضمنة لما يجب الايمان به من الاسماء والصفات فى النفى والاثبات .

وابتدأ بتلك السورة العظيمة لانها اشتملت من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيرها . ولهذا سميت سورة الاخلاص لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية .

روى الامام احمد فى مسنده عن ابى بن كعب رضى الله عنه فى سببه نزولها ان المشركين قالوا يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تبارك وتعالى (قل هو الله أحد الله الصمد الخ السورة) .

وقد ثبت فى الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن . وقد اختلف العلماء فى تأويل ذلك على اقوال اقربها (١) : ما نقله شيخ الاسلام عن ابى العباس ، وحاصله أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة مقاصد اساسية . اولها:الاوامر والنواهى المتضمنة للاحكام والشرائع

---

(١) انظر ٣٥ ، ٦٢ من كتاب جواب أهل العلم والايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية ، طبع المطبعة السلفية .

حَيثُ يَقُولُ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ) .

العملية التى هى موضوع علم الفقه والاخلاق .

ثانيها : القصص والاخبار المتضمنة لاحوال الرسل عليهم الصلاة والسلام مع اممهم ، وانواع الهلاك التى حاقت بالمكذبين لهم واحوال الوعد والوعيد وتفاصيل الثواب والعقاب .

ثالثها :علم التوحيد وما يجب على العباد من معرفة الله باسمائه وصفاته وهذا هو اشرف الثلاثة .

ولما كانت سورة الاخلاص قد تضمنت أصول هذا العلم ، واشتملت عليه اجمالا صح ان يقال انها تعدل ثلث القرآن .

واما كيف اشتملت هذه السورة على علوم التوحيد كلها وتضمنت الاصول التى هى مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى فنقول :

ان قوله تعالى (الله احد) دلت على نفى الشريك من كل وجه فى الذات او فى الصفات او فى الافعال ، كما دلت على تفرده سبحانه بالعظمة والكمال والمجد والجلال والكبرياء ، ولهذا لا يطلق لفظ احد فى الاثبات الا على الله عز وجل ، وهو ابلغ من واحد .

وقوله (الله الصمد) قد فسرها ابن عباس رضى الله عنه بقوله « السيد الذى كمل فى سؤدده ، والشريف الذى كمل فى شرفه والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والغنى الذى قد كمل فى غناه ، والجبار الذى قد كمل فى جبروته ، والعليم الذى قد كمل فى علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمه ، وهو الذى قد كمل فى انواع الشرف والسؤدد ، وهو الله عز وجل هذه صفته لا تنبغى الا له ليس له كفؤ وليس كمثله شىء .

وقد فسر الصمد ايضا بانه الذى لا جوف له وبانه الذى تصمد اليه الخليقة كلها وتقصده فى جميع حاجاتها ومهماتها .

فاثبات الاحدية لله تتضمن نفى المشاركة والمماثلة ، واثبات الصمدية بكل معانيها المتقدمة تتضمن اثبات جميع تفاصيل الاسماء الحسنى والصفات العلى ، وهذا هو توحيد الاثبات .

واما النوع الثانى وهو توحيد التنزيه فيؤخذ من قوله تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) كما يؤخذ اجمالا من قوله (الله أحد) .

اى لم يتفرع عنه شىء ولم يتفرع هو عن شىء ، وليس له مكافىء ولا مماثل ولا نظير .

فانظر كيف تضمنت هذه السورة توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب اثباته للرب تعالى من الاحدية المنافية لمطلق المشاركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذى لا يلحقه نقص بوجه من الوجوه ، ونفى الولد والوالد الذى هو من لوازم غناه وصمديته واحديته ، ثم نفى الكفء المتضمن لنفى التشبيه والتمثيل والنظير فحق لسورة تضمنت هذه المعارف كلها ان تعدل ثلث القرآن .

روى مسلم فى صحيحه عن ابى بن كعب ان النبى صلى الله عليه وسلم ساله : اى آية فى كتاب الله اعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فرددها مرارا ، ثم قال ابى : آية الكرسى فوضع النبى يده على كتفه وقال : ليهنك هذا العلم ابا المنذر — وفى رواية عند أحمد : « والذى نفسى بيده ان لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » .

ولا غرو فقد اشتملت هذه الآية العظيمة من أسماء الرب

وصفاته على ما لم تشتمل عليه آية اخـــرى .

فقد اخبر الله فيها عن نفسه بانه المتوحد فى إِلَٰهِيَّتِهِ الـــذى لا تنبغى العبادة بجميع انواعها وسائر صورها إِلَّا لَـــهُ .

ثم اردف قضية التوحيد بما يشهد لها من ذكر خصائصه وصفاته الكاملة ، فذكر انه الحى الذى له كمال الحياة لان حياته من لوازم ذاته فهى ازلية ابدية ، وكمال حياته يستلزم ثبوت جميع صفـــات الكمال الذاتية له من العزة والقدرة والعلم والحكمة والسمع والبصر والارادة والمشيئة وغيرها ، اذ لا يتخلف شىء منها الا لنقص فـــى الحياة . فالكمال فى الحياة يتبعه الكمال فى سائر الصفات اللازمـــة للحى . ثم قرن ذلك باسمه القيوم ومعناه الذى قام بنفسه واستغنى عن جميع خلقه غنى مطلقا لا تشوبه شائبة حاجة أصلا لانه غنى ذاتى ، وبـــه قامت الموجودات كلها ، فهى فقيرة اليه فقرا ذاتيا بحيـــث لا تستغنى عنه لحظة ، فهو الذى ابتدأ ايجادها على هذا النحو مـــن الاحكام والاتقان وهو الذى يدبر امورها ويمدها بكل ما تحتـــاج اليه فى بقائهـــا . وفى بلوغ الكمال الذى قدره لها ، فهذا الاســـم متضمن لجميع صفات الكمال الفعلية ، كما ان اسمه الحى متضمن لجميع صفات الكمال الذاتية . ولهذا ورد أن الحي القيوم همـــا اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اعطى واذا دعى به اجاب .

ثم اعقبه ذلك بما يدل على كمال حياته وقيوميته فقال (لا تأخذه) اى لا تغلبه (سنة) اى نعاس ولا نوم ، فان ذلك ينافى القيومية ، اذ النوم اخو الموت . ولهذا كان أهل الجنة لا ينامون ، ثم ذكـــــر عموم ملكه لجميع العوالم العلوية والسفلية ، وانها جميعا تحت قهره وسلطانه فقال (له ما فى السموات وما فى الارض) .

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

ثم اردف ذلك بما يدل على تمام ملكه ، وهو ان الشفاعة كلها له فلا يشفع عنده احد الا باذنه .

وقد تضمن هذا النفى والاستثناء امرين ، احدهما : اثبات الشفاعة الصحيحة ، وهى انها تقع باذنه سبحانه لمن يرضى قوله وعمله . والثانى : ابطال الشفاعة الشركية التى كان يعتقدها المشركون لاصنامهم وهى انها تشفع لهم بغير اذن الله ورضاه .

ثم ذكرسعة علمه واحاطته وانه لا يخفى عليه شىء من الامور المستقبلة والماضية واما الخلق فانهم لا يحيطون بشىء من علمه ، قيل يعنى من معلومه ، وقيل من علم اسمائه وصفاته الا بما شاء الله سبحانه . ان يعلمهم اياه على السنة رسله او بغير ذلك من طرق البحث والنظر والاستنتاج والتجربة .

ثم ذكر ما يدل على عظيم ملكه وواسع سلطانه ، فاخبر ان كرسيه قد وسع السموات والارض جميعا . والصحيح فى الكرسى انه غير العرش وانه موضع القدمين ، وانه فى العرش كحلقة ملقاة فى فلاة .

واما ما اورده ابن كثير عن ابن عباس من تفسير الكرسى بالعلم فانه لا يصح ويفضى الى التكرار فى الاية .

ثم اخبر سبحانه بعد ذلك من عظيم قدرته وكمال قوته بقوله : (ولا يؤوده حفظهما) اى السموات والارض وما فيهما . وفسر

الشيخ رحمه الله يؤوده (يثقله) ويكرثه وهو من آده الامـــر اذا ثقل عليه ، ثم وصف نفسه سبحانه فى ختام تلك الآية الكريمة ، بهذين الوصفين الجليلين ، وهما (العلى والعظيم) .

فالعلى هـــو الذى له العلو المطلـــق من جميـــع الوجـــوه ، علو الذات : وكونه فوق جميع المخلوقات مستويا على عرشـه .

وعلو القدر : اذ كان له كل صفة كمال ، وله من تلك الصفـــة أعلاها وغايتهـــا .

وعلو القهر : اذ كان هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .
واما العظيم : فمعناه الموصوف بالعظمة الذى لا شىء اعظم منه ، ولا أجل ولا اكبر ، وله سبحانه التعظيـــم الكامل فى قلوب انبيائـــه وملائكتـــه وأصفيـــائـــه .

قوله (هو الاول) الجملة هنا جاءت معرفة الطرفين ، فهـــى تفيد اختصاصه سبحانه بهذه الاسماء الاربعة ومعانيها على ما يليق بجلاله وعظمته ، فلا يثبت لغيره من ذلك شىء .

وقد اضطربت عبارات المتكلمين فى تفسير هذه الاسماء ، ولا داعى لهذه التفسيرات بعد ما ورد تفسيرها عن المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول اذا اوى الى فراشه ، « اللهم رب السموات السبع ورب الارض رب كل شىء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل ذى شر انت آخذ بناصيته ، انت الاول فليس قبلك شىء ، وانت الآخر فليس بعدك شىء ، وانت الظاهر فليس فوقك شىء ، وانت الباطن فليس دونك شىء ، اقض عنى الدين واغننى من الفقر » .

فهذا تفسير واضح جامع يدل على كمال عظمته سبحانه وانه محيط بالاشياء من كل وجه (فالاول والآخر) بيان لاحاطته الزمانية ، (والظاهر والباطن) بيان لاحاطته المكانية ، كما ان اسمه الظاهر يدل على انه العالي فوق جميع خلقه ، فلا شيء منها فوقه .

فمدار هذه الاسماء الاربعة على الاحاطة ، فاحاطت أوليته وآخريته بالاوائل والاواخر ، واحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فاسمه الاول دال على قدمه وازليته ، واسمه الآخر دال على بقائه وابديته ، واسمه الظاهر دال على علوه وعظمته ، واسمه الباطن دال على قربه ومعيته ، ثم ختمت الآية بما يفيد احاطة علمه بكل شيء من الامور الماضية والحاضرة والمستقبلة ، ومن العالم العلوى والسفلى ، ومن الواجبات والجائزات والمستحيلات فلا يغيب عن علمه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء . فالآية كلها شان احاطة الرب سبحانه بجميع خلقه من كل وجه ، وان العوالم كلها فى قبضة يده كخردلة فى يد العبد لا يفوته منها شيء ، وانما اتى بين هذه الصفات بالواو مع انها جارية على موصوف واحد لزيادة التقرير والتاكيد ، لان الواو تقتضى تحقيق الوصف المتقدم وتقريره وحسن ذلك لمجيئها بين أوصاف متقابلة قد يسبق الى الوهم استبعاد الاتصال بها جميعا ، فان الاولية تنافى الآخرية فى الظاهر . وكذلك الظاهرية والباطنية فاندفع توهم الانكار التاكيد .

قوله (وتوكل الخ) هذه الجملة من الآيات ساقها المؤلف لاثبات بعض الاسماء والصفات . فالآية الاولى فيها اثبات اسمه الحي ، كما تضمنت سلب الموت الذى هو ضد الحياة عنه ، وقد قدمنا انه سبحانه حى بحياة هى صفة له لازمة لذاته فلا يعرض لها موت ولا زوال اصلا ، وان

حياته اكمل حياة واتمها فيستلزم ثبوتها له ثبوت كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة . واما الآيات الباقية ففيها اثبات صفة العلم وما اشتق منها ككونه عليما ويعلم واحاط بكل شيء علما الخ .

والعلم صفة لله عز وجل بها يدرك جميع المعلومات على ما هي به فلا يخفى عليه منها شيء كما قدمنا .

وفيها اثبات اسمه الحكيم ، وهو مأخوذ من الحكمة ، ومعناه الذي لا يقول ولا يفعل الا الصواب ، فلا يقع منه عبث ولا باطل ، بل كل ما يخلقه او يأمر به فهو تابع لحكمته .

وقيل هو من فعيل بمعنى مفعل ، ومعناه المحكم للاشياء من الاحكام وهو الاتقان فلا يقع فى خلقه تفاوت ولا فطور ، ولا يقع فى تدبيره خلل او اضطراب .

وفيها كذلك اثبات اسمه الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والاحاطة بالاشياء على وجه التفصيل ووصول علمه الى كل ما خفى ودق من الحسيات والمعنويات .

وقد ذكر سبحانه فى هذه الآيات بعض ما يتعلق به علمه للدلالة على شموله واحاطته بما لا تبلغه علوم خلقه ، فذكر انه يعلم ما يلج اى يدخل فى الارض من حب وبذور ومياه وحشرات ومعادن ، وما يخرج منها من زرع واشجار وعيون جارية ومعادن نافعة كذلك وما ينزل من السماء ، من ثلوج وامطار وصواعق وملائكة ، وما يعرج ، أى يصعد فيها كذلك من ملائكة واعمال وطير صواف الى غير ذلك مما يعلمه جل شأنه ، وذكر فيها ايضا ان عنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ومفاتح الغيب قيل خزائنه ، وقيل طرقه

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

واسبابه التى يتوصل بها اليه ، جمع مِفْتَح بكسر الميم او مِفتَـاح بحذف يـاء مفاعيل .

وقد فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن الا الله ، ثم تلا قوله تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الارحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى أرض تموت ان الله عليم خبير) .

وقد دلت الآيتان الاخيرتان على انه سبحانه عالم بعلم هو صفة له قائم بذاته خلافا للمعتزلة الذين نفوا صفاته ، فمنهم من قال أنه عالم بذاته وقادر بذاته الخ ، ومنهم من فسر اسماءه بمعان سلبية فقال : عليم معناه لا يجهل ، وقادر معناه لا يعجز الخ .

وهذه الآيات حجة عليهم فقد اخبر فيها سبحانه عن احاطة علمه بحمل كل انثى ووضعها من حيث المتى والكيف ، كمـا أخبـر عن عموم قدرته وتعلقها بكل ممكن وعن احاطة علمه بجميع الاشياء وما احسن ما قاله الامام عبد العزيز المكى فى كتابه الحيدة لبشـر المريسى المعتزلى وهو يناظره فى مسالة العلم « ان الله عز وجل لم يمدح فى كتابه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا ولا مؤمنا تقيا بنفى الجهل عنه ليدل على اثبات العلم له ، وانما مدحهم باثبات العلم لهم فنفى بذلك الجهل عنهم ، فمن اثبت العلم نفى الجهل ، ومن نفى الجهل لم يثبـت العلـم » .

والدليل العقلى على علمه تعالى انه يستحيل ايجاده الاشياء مع الجهل لان ايجاده الاشياء بارادته ، والارادة تستلزم العلم المراد ولهذا قال سبحانه (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) .

إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) وَقَوْلُهُ (وَمَا تَحمِلُ مِن أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلمِهِ) وَقَوْلُهُ (لِتَعلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللّهَ قَد أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً) .

ولان المخلوقات فيها من الاحكام والاتقان وعجيب الصنعة ودقيق الخلقة ما يشهد بعلم الفاعل لها لامتناع صدور ذلك من غير علم .

ولان من المخلوقات من هو عالم والعلم صفة كمال ، فلو لم يكن الله عالما لكان فى المخلوقات من هو اكمل منه .

وكل علم فى المخلوق انما استفاده من خالقه ، وواهب الكمال احق به ، وفاقد الشيء لا يعطيه . وانكر الفلاسفة علمه تعالى بالجزئيات وقالوا انه يعلم الاشياء على وجه كلى ثابت ، وحقيقة قولهم انه لا يعلم شيئا ، فان كل ما فى الخارج هو جزئى . كما انكر الغلاة من القدرية علمه تعالى بافعال العباد حتى يعملوها ، توهما منهم ان علمه بها يفضى الى الجبر ، وقولهم معلوم البطلان بالضرورة فى جميع الاديان . قوله (ان الله الخ) تضمنت اثبات اسمه الرزاق وهو مبالغة من الرزق ومعناه الذى يرزق عباده رزقا بعد رزق فى اكثار وسعة ، وكل ما وصل منه سبحانه من نفع الى عباده فهو رزق، مباحاً كان أو غير مباح على معنى انه قد جعله لهم قوتا ومعاشا ، قال تعالى (والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد) وقال (وفى السماء رزقكم وما توعدون) الا ان الشيء اذا كان مأذونا فى تناوله فهو حلال حكما والا كان حراما ، وجميع ذلك رزق ، وتعريف الجملة الاسمية والاتيان فيها بضمير الفصل لافادة اختصاصه سبحانه بايصال الرزق الى عباده .

وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « اقرانى رسول

وَقَولُهُ (إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِين)
وَقَولُهُ (لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) وَقَولُهُ (إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) .

الله صلى الله عليه وسلم انى أنا الرزاق ذو القوة المتين » .

واما قوله (ذو القوة) اي صاحب القوة فهو بمعنى اسمه القوى الا انه ابلغ فى المعنى ، فهو يدل على أن قوته سبحانه لا تتناقص فيهن أو يفتـــر .

واما (المتين) فهو اسم له من المتانة ، وقد فسره ابن عباس « بالشديـــــد » .

قوله (ليس كمثله شيء الخ) دل اثبات صفتى السمع والبصر له سبحانه بعد نفى المثل عنه على انه ليس المراد من نفى المثل نفى الصفات كما يدعى ذلك المعطلة ويحتجون به باطلا ، بل المراد اثبات الصفات مع نفى مماثلتها لصفات المخلوقين

قال العلامة ابن القيم رحمه الله (قوله ليس كمثله شيء) انما قصد به نفى أن يكون معه شريك او معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون ، ولم يقصد به نفى صفات كمالــه وعلوه على خلقه وتكليمه بكتبه وتكلمه لرسله ورؤية المؤمنين لــه جهرة بابصارهم كما ترى الشمس والقمر فى الصحو . ا هـ .

ومعنى السميع المدرك لجميع الاصوات مهما خفتت ، فهو يسمع السر والنجوى بسمع هو صفة لا يماثل اسماع خلقه .

ومعنى البصير المدرك لجميع المرئيات من الاشخاص والالوان مهما لطفت او بعدت فلا تؤثر على رؤيته الحواجز والاستار وهو من فعيل بمعنى مفعل ، وهو دال على ثبوت صفة البصر له سبحانه على الوجه الذى يليق بــه .

وَقَوْلُهُ (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ)
وَقَوْلُهُ (وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) .

روى ابو داود فى سننه عن ابى هريرة رضى الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قرا هذه الآية (ان الله كان سميعا بصيرا) فوضع ابهامه على اذنه والتى تليها على عينه .

ومعنى الحديث انه سبحانه يسمع بسمع ويرى بعين فهو حجة على بعض الاشاعرة الذين يجعلون سمعه علمه بالمسموعات وبصره علمه بالمبصرات ، وهو تفسير خاطىء ، فان الاعمى يعلم بوجود السماء ولا يراها ، والاصم يعلم بوجود الاصوات ولا يسمعها .

قوله (ولولا اذ دخلت ، الخ) هذه الآيات دلت على اثبات صفتى الارادة والمشيئة ، والنصوص فى ذلك لا تحصى كثرة .

والاشاعرة يثبتون ارادة واحدة قديمة تعلقت فى الازل بكل المرادات فيلزمهم تخلف المراد عن الارادة ، واما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون فى صفة الارادة ، ويقولون انه يريد بارادة حادثة لا فى محل ، فليزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من ابطل الباطل .

واما اهل الحق فيقولون ان الارادة على نوعين :

(١) ارادة كونية ترادفها المشيئة ، وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله واحداثه ، فهو سبحانه اذا اراد شيئا وشاءه كان عقب ارادته له كما قال تعالى (وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون)

وفى الحديث الصحيح (ما شاء الله كان وما لم يشا لم يكن) .

(٢) ارادة شرعية تتعلق بما يامر الله به عباده مما يحبه ويرضاه

وَقَوْلُهُ (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنعَامِ إِلاَّ مَا يُتلَى عَلَيكُم غَيـرَ مُحِلِّي الصَّيدِ وَأَنتُم حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحكُمُ مَا يُرِيدُ) .

وَقَولُهُ (فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشرَح صَدرَهُ لِلإِسلَامِ ، وَمَن يُرِد أَن يُضِلَّهُ يَجعَل صَدرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) .

وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ولا تلازم بين الارادتين بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الاخرى فبينهما عموم وخصوص من وجه . فالارادة الكونية أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصـى ، واخص من جهة انها لا تتعلق بمثل ايمان الكافر وطاعة الفاسق .

والارادة الشرعية أعم من جهة تعلقها بكل مامور به واقعا كان او غير واقع ، واخص من جهة ان الواقع بالارادة الكونية قـد يكون غير مامـور بـه .

والحاصل ان الارادتين قد تجتمعان معا فى مثل ايمان المؤمـن وطاعة المطيع ، وتنفرد الكونية فى مثـل كفر الكافر ومعصيـة العاصي ، وتنفرد الشرعية فى مثل ايمان الكافر وطاعة العاصـى

وقوله تعالى (ولولا اذ دخلت جنتك) الآية ، هذا من قول الله حكاية عن الرجل المؤمن لزميله الكافر صاحب الجنتين يعظه به ان يشكر نعمة الله عليه ويردها الى مشيئة الله ويبرأ من حوله وقوته فانه لا قوة الا بالله .

وقوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا) الآية ، اخبار عما وقع بين اتباع الرسل من بعدهم من التنازع والتعادى بغيا بينهم وحسدا ، وان ذلك انما كان بمشيئة الله عز وجل ، ولو شاء عدم حصولـه ما حصل ولكنه شاءه فوقـع .

وقوله (فمن يرد الله ان يهديه الخ) الآية تدل على أن كلا من

وَقَولُه (وَأَحسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحسِنِين ـ وَأَقسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ ـ)

الهداية والضلال بخلق الله عز وجل ، فمن يرد هدايته ، أى الهامه وتوفيقه يشرح صدره للاسلام بان يقذف فى قلبه نورا فيتسع لـه وينبسط كما ورد فى الحديث ـ ومن يرد اضلاله وخذلانه يجعـل صدره فى غاية الضيق والحرج ، فلا ينفذ اليه نور الايمان . وشبه ذلك بمن يَصَّعَدُ فى السمـاء .

تضمنت هذه الآيات اثبات افعال له تعالى ناشئة عن صفة المحبة ومحبة الله عز وجل لبعض الاشخاص والاعمال والاخلاق صفـة له قائمة به ، وهى من صفات الفعل الاختيارية التى تتعلق بمشيئته

فهو يحب بعض الاشياء دون بعض على ما تقتضيه الحكمة البالغـة وينفى الاشاعرة والمعتزلة صفة المحبة بدعوى انها توهم نقصا ، اذ المحبة فى المخلوق معناها ميله الى ما يناسبه أو يستلذه ، فأما الاشاعرة فيرجعونها الى صفة الارادة ، فيقولون ان محبة الله لعبده لا معنى لها الا ارادته لاكرامه ومثوبته .

وكذلك يقولون فى صفات الرضى والغضب والكراهية والسخط كلها عندهم بمعنى ارادة الثواب والعقاب .

وأما المعتزلة فلانهم لا يثبتون ارادة قائمة به ، فيفسرون المحبة بأنها نفس الثواب الواجب عندهم على الله لهؤلاء بناء على مذهبهم فى وجوب اثابة المطيع وعقاب العاصى .

وأما اهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا تقتضى عندهم نقصا ولا تشبيها .

كما يثبتون لازم تلك المحبة وهى ارادته سبحانه اكرام من يحبه واثابته ، وليت شعرى بماذا يجيب النافون للمحبة عن مثل قولـه

فَمَا استَقَامُوا لَكُم فَاستَقِيمُوا لَهُم إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِين ـــ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ) . وَقَولُهُ (قُل إِن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحبِبكُـــمُ اللهُ) .

عليه السلام فى حديث ابى هريرة « ان الله عز وجل اذا أحب عبدا قال لجبريل عليه السلام انى أحب فلانا فأحبه ، قال فيقول جبريل عليه السلام لاهل السماء : ان ربكم عز وجل يحب فلانا فأحبـوه ، قال فيحبه اهل السماء ويوضـع له القبول فى الارض ، واذا ابغضـه فمثل ذلك) رواه الشيخان .

وقوله تعالى فى الآية الاولى (واحسنوا) أمر بالاحسان العام فى كل شيء لا سيما فى أمور النفقه المامور بها قبل ذلك ، والاحسان فيها يكون بالبذل وعدم الامساك ، أو بالتوسط بين التقتير والتبذير ، وهو القوام الذى امر الله به فى سورة الفرقان .

روى مسلم فى صحيحه عن شداد بن اوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله كتب الاحسان على كل شيء ، فاذا قتلتم فاحسنوا القتلة ، واذا ذبحتم فاحسنوا الذبحة ، وليحد احدكم شفرته وليرح ذبيحته » واما قوله (ان الله يحب المحسنين) فهو تعليل للامر بالاحسان فانهم اذا علموا أن الاحسان موجب لمحبته سارعوا الى امتثال الامـــر بــه .

واما قوله فى الاية الثانية (واقسطوا) فهو امر بالاقساط وهو العدل فى الحكم بين الطائفتين المتنازعتين من المؤمنين ، وهو من قسط اذ جار ، فالهمزة فيه للسلب ، ومن اسمائه تعالى المقسط ، وفى الآية الحث على العدل وفضله ، وانه سبب لمحبة الله عز وجل

واما قوله تعالى (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) فمعناه اذا كان بينكم وبين احد عهد كهؤلاء الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام

وَقَوْلُهُ (فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ). وَقَوْلُهُ (إِنَّ اللَّـهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ).

وَقَوْلُهُ (وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ).

فاستقيموا لهم على عهدهم مدة استقامتهم لكم ، فما هنا مصدريه ظرفية ثم علل ذلك الامر بقوله (ان الله يحب المتقين) أى يحب الذين يتقون الله فى كل شىء ومنه عدم نقض العهود .

واما قوله (ان الله يحب التوابين الخ) فهو اخبار من الله سبحانه عن محبته لهذين الصنفين من عباده .

اما الاول فهم التوابون ، أى الذين يكثرون التوبة والرجوع الى الله عز وجل بالاستغفار مما الموا به على ما تقتضيه صيغة المبالغة ، فهم بكثرة التوبة قد تطهروا من الاقذار والنجاسات المعنوية التى هى الذنوب والمعاصى .

واما الثانى فهم المتطهرون الذين يبالغون فى التطهر ، وهو التنظيف بالوضوء أو بالغسل من الاحداث والنجاسات الحسية .

وقيل المراد بالمتطهرين هنا الذين يتنزهون عن اتيان النساء فى زمن الحيض أو فى أدبارهن ، والحمل على العموم أولى .

واما قوله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فقد روى عن الحسن فى سبب نزولها أن قوما ادعوا أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنة لهم ، وفى هذه الاية قد شرط الله لمحبته اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا ينال تلك المحبة الا من احسن الاتباع ، والاستمساك بهديه عليه السلام .

قوله (وهو الغفور الخ) تضمنت الآية اثبات اسمين من الاسماء الحسنى وهما « الغفور والودود » اما الاول فهو مبالغة الغفر ومعناه الذى يكثر منه الستر على المذنبين من عباده والتجاوز

عن مؤاخذتهـم .

واصل الغفر الستر ، ومنه يقال : الصبغ اغفر للوسخ . ومنه المغفر لسترة الراس .

واما الثانى فهو من الود الذى هو خالص الحب والطفه ، وهو اما من فعول بمعنى فاعل ، فيكون معناه الكثير الود لاهل طاعته والمتقرب اليهم بنصرته ومعونته .

واما من فعول بمعنى مفعول فيكون معناه المودود لكـثرة احسانه المستحق لان يوده خلقه فيعبدوه ويحمدوه .

واما قوله (بسم الله الرحمن الرحيم) وما بعدها من الآيات فقد تضمنت اثبات أسمائه الرحمن والرحيم واثبات صفتى الرحمة والعلم .

وقد تقدم فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم الكلام على هذين الاسمين وبيان الفرق بينهما ، وان اولهما دال على صفة الذات والثانى دال على صفة الفعل ، وقد أنكر الاشاعرة والمعتزلة صفة الرحمة بدعوى أنها فى المخلوق ضعف وخور وتالم للمرحوم ، وهذا مـن اقبح الجهل فان الرحمة انما تكون من الاقوياء للضعفاء ، فلا تستلزم ضعفا ولا خورا بل قد تكون مع غاية العزة والقدرة . فالانسان القوى يرحم ولده الصغير وابويه الكبيرين ومن هو أضعف منه ، واين الضعف والخور وهما من أذم الصفات من الرحمة التى وصف الله نفسه بها واثنى على أوليائه المتصفين بها وأمرهم أن يتواصوا بهـا .

وقوله (ربنا وسعت الخ) من كلام الله عز وجل حكاية عـن حملة العرش والذين حوله ، يتوسلون الى الله عز وجل بربوبيته وسعة

(وَكَانَ بِالمؤمِنِينَ رَحِيماً ـ وَرَحمَتِي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ ـ كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفسِهِ الرَّحمَةَ ـ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ـ فَاللهُ خَيرٌ حَافِظاً وَهُوَ أرحَمُ الرَّاحِمِين) .

قَولُهُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ ـ وَمَن يَقتُل مُؤمِناً مُتَعَمِّداً

علمه ورحمته فى دعائهم للمؤمنين ، وهو من أحسن التوسلات التى يرجى معها الاجابـــة .

وانصب قوله رحمة وعلما على التمييز المحول عن الفاعل ، والتقدير وسعت رحمتك وعلمك كل شىء ، فرحمته سبحانه وسعت فى الدنيا المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولكنها يوم القيامة تكــون خاصة بالمتقين كما قال تعالى (فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة) الآية . وقوله تعالى (كتب ربكم على نفسه الرحمة) أى أوجبها على نفسه تفضلا واحسانا ولم يوجبها عليه أحد .

وفى حديث أبى هريرة فى الصحيحين « ان الله لما خلق الخلــق كتب كتابا فهو عنده فوق العرش ان رحمتى سبقت أو تسبق غضبى .

واما قوله « فالله خير حافظا » فالحافظ والحفيظ مأخوذ من الحفظ وهو الصيانة . ومعناه الذى يحفظ عباده بالحفظ العام فييسر لهم أقواتهم ويقيهم أسباب الهلاك والعطب وكذلك يحفظ عليهم أعمالهم ويحصى أقوالهم ويحفظ أولياءه بالحفظ الخاص فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ويحرسهم من مكايد الشيطان وعن كل ما يضرهم فى دينهم ودنياهم ، وانتصب (حافظاً) تمييزا (لخير) الذى هو أفعل تفضيل .

قوله (رضى الله عنهم الخ) تضمنت هذه الآيات اثبات بعض صفات الفعل من الرضى لله الغضب ، واللعن والكره ، والسخــط والمقــت والاســف .

وهى عند أهل الحق صفات حقيقية لله عز وجل على ما يليق به

فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ).وَقَوْلُهُ (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ) .

ولا تشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ، ولا يلزم منها ما يلزم فى المخلوق ، فلا حجة للاشاعرة والمعتزلة على نفيها ولكنهم ظنوا أن اتصاف الله عز وجل بها يلزمه ان تكون هذه الصفات فيه على نحو ما هى فى المخلوق ، وهذا الظن الذى ظنوه فى ربهم ارداهم فأوقعهم فى حماة النفى والتعطيل ، والاشاعرة يرجعون هذه الصفات كلها الى الارادة كما علمت سابقا ، فالرضى عندهم ارادة الثواب والغضب والسخط الخ ارادة العقاب .

واما المعتزلة فيرجعونها الى نفس الثواب والعقاب

وقوله سبحانه (رضى الله عنهم ورضوا عنه) اخبار عما يكون بينه وبين اوليائه من تبادل الرضى والمحبة ، اما رضاه عنهم فهو اعظم واجل من كل ما اعطوا من النعيم كما قال سبحانه (ورضوان من الله اكبر) واما رضاهم عنه فهو رضى كل منهم بمنزلته مهما كانت وسروره بها حتى يظن انه لم يؤت احد خيرا مما اوتى ، وذلك فى الجنة .

واما قوله (ومن يقتل مؤمنا متعمدا) الآية ، فقد احترز بقوله مؤمنا عن قتل الكافر ، وبقوله متعمدا ، اى قاصدا لذلك (بأن يقصد من يعلمه آدميا معصوما فيقتله بما يغلب على الظن موته به) عن القتل الخطأ .

وقوله (خالدا فيها) اى مقيما على جهة التأبيد ، وقيل الخلود المكث الطويل واللعن هو الطرد والابعاد عن رحمة الله ، واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعى عليه بها .

وقد استشكل العلماء هذه الآيات من حيث انها تدل على أن

(فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ) وَقَولُه (وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُم) وَقولُهُ (كَبُرَ مَقتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَالاَ تَفعَلُونَ) .

وَقَولُهُ (هَل يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأتِيَهُم اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالملائكَةُ وَقُضِيَ الأَمرُ)

القاتل عمدا لا توبة له وانه مخلد فى النار ، وهذا معارض لقوله تعالى (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقد اجابوا عن ذلك بعدة اجوبة منهـا :

١ ـ أن هذا الجزاء لمن كان مستحلا لقتل المؤمن عمدا .

٢ ـ ان هذا هو جزاؤه الذى يستحقه لو جوزى مع امكان ان لا يجازى بأن يتوب أو يعمل صالحا يرجح بعمله السىء .

٣ ـ أن الآية واردة مورد التغليظ والزجر .

٤ ـ ان المراد بالخلود المكث الطويل كما قدمنا .

وقد ذهب ابن عباس وجماعة الى ان القاتل عمدا لا توبة له حتى قال ابن عباس : ان هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شىء ، والصحيح ان على القاتل حقوقا ثلاثة : حقا لله وحقا للورثة وحقا للقتيل ، فحق الله يسقط بالتوبة ، وحق الورثة يسقط بالاستيفـاء فى الدنيا أو العفو ، واما حق القتيل فلا يسقط حتى يجتمع بقاتله يوم القيامة ويأتى راسه فى يده ويقول يا رب سل هذا فيم قتلنى ؟

وأما قوله (فلما آسفونا الخ) فالاسف يستعمل بمعنى شدة الحزن وبمعنى شدة الغضب والسخط وهو المراد فى الآية والانتقام المجازاة بالعقوبة ماخوذا من النقمة وهى شدة الكراهة والسخط .

قوله (هل ينظرون الخ) فى هذه الايات اثبات صفتين من صفات الفعل له سبحانه وهما صفتا الاتيان والمجىء والذى عليه أهل السنة

وَقَوْلُهُ (وَيَبْقَى وَجهُ رَبِّكَ ذُو الجَلَالِ وَالإِكرَامِ ـ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجهَـــــهُ)

والجماعة الايمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذى هو فى الحقيقة الحاد وتعطيل .

ولعل من المناسب أن ننقل الى القارىء هنا ما كتبه حامل لواء التجهم والتعطيل فى هذا العصر وهو المدعو بزاهد الكوثرى

قال فى حاشيته على كتاب الاسماء والصفات للبيهقـــى ما نصه : (قال الزمخشرى ما معناه ان الله يأتى بعذاب فى الغمام الذى ينتظـــر منه الرحمة ، فيكون مجىء العذاب من حيث تنتظر الرحمـــة افظـــع واهول) وقال امام الحرمين فى معنى الباء كما سبق ، وقال الفخـــر الرازى أن يأتيهم امر الله . ا هـ .

فانت ترى من نقل هذا الرجل عن اسلافه فى التعطيل مـــــدى اضطرابهم فى التخريج والتاويل .

على أن الآيات صريحة فى بابها لا تقبل شيئا من تلك التاويلات فالآية الاولى تتوعد هؤلاء المصرين على كفرهـــم وعنادهم واتباعهم الشيطان بأنهم ما ينتظرون الا ان يأتيهم الله عز وجل فى ظلل الغمـــام لفصل القضاء بينهم ، وذلك يوم القيامة ، ولهذا قال بعد ذلك (وقضـــى الامـــر) والآية الثانية اشد صراحة اذ لا يمكن تأويل الاتيان فيها بأنه اتيان الامر أو العذاب لانه ردد فيها بين اتيان الملائكة واتيان الرب واتيان بعض آيات الرب سبحانه .

وقوله فى الآية التى بعدها (وجاء ربك والملك صفا صفـــا) لا يمكن حملها على مجىء العذاب ، لان المراد مجيئه سبحانه يوم القيامة لفصل القضاء ، والملائكـــة صفوف اجلالا وتعظيما لـــه ، وعند مجيئه تنشق السماء بالغمام كما افادته الآية الاخيرة . وهـــو

سبحانه يجيء ويأتي وينزل ويدنو وهو فوق عرشه بائن من خلقه .
فهذه كلها افعال له سبحانه على الحقيقة ، ودعوى المجاز تعطيل له عن فعله واعتقاد ان ذلك المجيء والاتيان من جنس مجيء المخلوقين واتيانهم نزوع الى التشبيه يفضي الى الانكار والتعطيل .

قوله (ويبقى وجه ربك الخ) تضمنت هاتان الآيتان اثبات صفة الوجه لله عز وجل .

والنصوص فى اثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصى كثرة وكلها تنفى تأويل المعطلة الذين يفسرون الوجه بالجهة أو الثواب او الذات ، والذى عليه اهل الحق أن الوجه صفة غير الذات ولا يقتضي اثباته كونه تعالى مركبا من اعضاء كما يقوله المجسمة ، بل هو صفة لله على ما يليق به فلا يشبه وجها ولا يشبهه وجه .

واستدل المعطلة بهاتين الآيتين على ان المراد بالوجه الذات اذ لا خصوص للوجه فى البقاء وعدم الهلاك .

ونحن نعارض هذا الاستدلال بانه لو لم يكن لله عز وجل وجه على الحقيقة لما جاز استعمال هذا اللفظ فى معنى الذات فان اللفظ الموضوع لمعنى لا يمكن ان يستعمل فى معنى آخر الا اذا كان المعنى الاصلي ثابتا للموصوف حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم الى لازمه ، على انه يمكن دفع مجازهم بطريق آخر فيقال انه اسند البقاء الى الوجه ، ويلزم منه بقاء الذات بدلا من ان يقال اطلق الوجه واراد الذات . وقد ذكر البيهقى نقلا عن الخطابى انه تعالى لما اضاف الوجه الى الذات واضاف النعت الى الوجه فقال (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) دل على أن ذكر الوجه ليس بصلة وان قوله ذو الجلال والاكرام صفة للوجه والوجه صفة للذات .

وكيف يمكن تأويل الوجه بالذات أو بغيرها فى مثل قوله عليه

وَقَولُه (مَا مَنَعَكَ أَن تَسجُدَ لِمَا خَلَقتُ بِيَدِي ـ وَقَالَت اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغلُولَةٌ . غُلَّت أَيدِيهِم وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا

السلام في حديث الطائف « أعوذ بنور وجهك الذى اشرقت لـــه الظلمات الخ » وقوله فيما رواه ابو موسى الاشعرى « حجابه النور او النار لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .

قوله (ما منعك الخ) تضمنت هاتان الآيتان اثبات اليدين صفة حقيقة له سبحانه على ما يليق به ، فهو في الآية الاولى يوبخ ابليس على امتناعه عن السجود لآدم الذى خلقه بيديه ، ولا يمكن حمـل اليدين هنا على القدرة ، فان الاشياء جميعا حتى ابليس خلقها الله بقدرته فلا يبقى لآدم خصوصية يتميز بها .

وفي حديث عبد الله بن عمرو « ان الله عز وجل خلق ثلاثة اشياء بيده : خلق آدم بيده وكتب التوراة بيـده وغرس جنـة عدن بيده ، فتخصيص هذه الثلاثة بالذكر مع مشاركتها لبقية المخلوقات في وقوعها بالقدرة دال على اختصاصها بأمر زائد .

وايضا فلفظ اليدين بالتثنية لم يعرف استعماله الا في اليـد الحقيقية ولم يرد قط بمعنى القدرة او النعمة فانه لا يسوغ ان يقال خلقه الله بقدرتين او بنعمتين ، على انه لا يجوز اطلاق اليديـن بمعنى النعمة او القدرة او غيرهما الا في حق من اتصف باليديـن على الحقيقة ، ولذلك لا يقال للريح يد ولا للماء يـد .

واما احتجاج المعطلة بان اليد قد افردت في بعض الايات وجاءت بلفظ الجمع في بعضها فلا دليل فيه ، فان ما يصنع بالاثنين قد ينسب الى الواحد ، تقول رايت بعيني وسمعت باذني والمراد عيناى واذناى وكذلك الجمع ياتى بمعنى المثنى احيانا كقوله تعالى (ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما) والمراد قلباكما .

بَـل يَدَاه مَبسُوطَتَانِ يُنفِـقُ كَيفَ يَشَاءُ) وَقَولُهُ (فَاصبِر لِحُكـمِ رَبِّـكَ فَإنَّـكَ بِأعيُنِنَـا ـ وَحَمَلنَـاهُ عَـلَى ذَاتِ أَلوَاحٍ وَدُسُـرٍ ـ تَجرِي بِأَعيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ ، وَأَلقَيتُ عَلَيكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصنَعَ عَلَـى عَينِـي) .

وكيف يتأتى حمل اليد على القدرة او النعمة مع ما ورد مـن اثبات الكف والاصابع واليمين والشمال والقبض والبسط وغيـر ذلك مما لا يكون الا لليد الحقيقية .

وفى الآية الثانية يحكى الله سبحانه مقالة اليهود قبحهم الله فى ربهم ووصفهم اياه حاشاه بأن يده مغلولة اى ممسكة عن الانفاق .

ثم اثبت لنفسه سبحانه عكس ما قالوا ، وهو ان يديه مبسوطتان بالعطاء ينفق كيف يشاء ، كما جـاء فى الحديث ان يمين الله ملأى سَحَّاء الليل والنهار لا تغيضها نفقة . ترى لو لم يكن لله يدان علـى الحقيقة هل كان يحسن هذا التعبير ببسط اليدين .

الا شـاهت وجوه المتأولين .

قوله (فاصبر لحكم ربك الخ) فى هذه الآيات الثلاث يثبت الله سبحانه لنفسـه عينا يرى بها جميع المرئيات ، وهى صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به فلا يقتضى اثباتها كونها جارحة مركبـة من شحم وعصب وغيرهما .

وتفسير المعطلة لها بالرؤية او بالحفظ والرعاية نفى وتعطيل

واما افرادها فى بعض النصوص وجمعها فى البعض الآخـر فلا حجة لهم فيه على نفيها ، فان لغة العرب تتسع لذلك ، فقـد يعبر فيها عن الاثنين بلفظ الجمع ، ويقوم فيها الواحد مقام الاثنين كما قدمنا فى اليديـــن .

وَقَوْلُهُ (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) وَقَوْلُهُ (وَلَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .

على أنه لا يمكن استعمال لفظ العين فى شىء من هذه المعانى التى ذكروها الا بالنسبة لمن له عين حقيقية فهل يريد هؤلاء المعطلة ان يقولوا ان الله يتمدح بما ليس فيه فيثبت لنفسه عينا وهو عاطل عنها ؟ وهل يريدون ان يقولوا ان رؤيته للاشياء لا تقع بصفة خاصة بها بل هو يراها بذاته كلها ، كما تقول المعتزلة انه قادر بذاته مريد بذاته الخ وفى الاية الاولى يامر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر لحكمه والاحتمال لما يلقاه من اذى قومه ، ويعلل ذلك الامر بأنه بمرأى منه وفى كلاءته وحفظه .

وفى الاية الثانية يخبر الله عز وجل عن نبيه نوح عليه السلام انه لما كذبه قومه وحقت عليهم كلمة العذاب واخذهم الله بالطوفان حمله هو ومن معه من المؤمنين على سفينة ذات الواح عظيمة من الخشب ودسر ، اى مسامير (جمع دسار) تشد بها الالواح ، وانها كانت تجرى بعين الله وحراسته .

وفى الاية الثالثة : خطاب من الله لنبيه موسى عليه السلام بانه القى عليه محبة منه ، يعنى احبه هو سبحانه وحببه الى خلقه ، وانه صنعه على عينه ورباه تربية استعد بها للقيام بما حمله من رسالة الى فرعون وقومه .

قوله (قد سمع الله الخ) هذه الايات ساقها المؤلف لاثبات صفات السمع والبصر والرؤية .

اما السمع : فقد عبرت عنه الايات بكل صيغ الاشتقاق وهى سمع ويسمع وسميع ونسمع واسمع ، فهو صفة حقيقية لله يدرك

وَقَوْلَهُ (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ـ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ـ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى ـ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ـ وَقُل اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ) .

بها الاصوات كما قدمنـــا .

واما البصر : فهو الصفة التى يدرك بها الاشخاص والالوان والرؤية لازمة له ، وقد جاء فى حديث ابى موسى (يا أيها النـــاس اربعوا على انفسكم انكم لا تدعون اصم ولا غائبا ولكن تدعون سميعا بصيرا ان الذى تدعون أقرب الى احدكم من عنق راحلته) .

وكل من السمع والبصر صفة كمال وقد عاب الله على المشركين عبادتهم ما لا يسمع ولا يبصر ، وقد نزلت الآية الاولى فى شـــان خولة بنت ثعلبة حين ظاهر منها زوجها فجاءت تشكو الى رســـول الله صلى الله عليه وسلم وتحاوره وهو يقول لها : ما أراك الا قد حرمت عليه .

أخرج البخارى فى صحيحه عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت « الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وانا فى ناحية من البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) الآيات .

واما الآية الثانية : فقد نزلت فى فنحاص اليهودى الخبيث حين قال لابى بكر رضى الله عنه لما دعاه الى الاسلام : والله يا ابا بكر ما بنا الى الله من حاجة من فقر وانه الينا لفقير ولو كان غنيـــا ما استقرضنا) . واما الآية الثالثة : فأَم بمعنى بل والهمزة فهى أم المنقطعة ، والاستفهام انكارى يتضمن معنى التوبيخ ، والمعنى بـــل

وَقَوْلُهُ (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) وَقَوْلُهُ (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) .

أيظن هؤلاء فى تخفيهم واستتارهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى نسمع ذلك وحفظتنا لديهم يكتبون ما يقولون وما يفعلون .

واما الآية الرابعة : فهى خطاب من الله عز وجل لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام حين شكوا الى الله خوفهما من بطش فرعون بهما ، فقال لهما : « لا تخافا اننى معكما اسمع وارى » .

واما الآية الخامسة فقد نزلت فى شان ابى جهل لعنه الله حين نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند البيت فنزل قوله تعالى (ارايت الذى ينهى عبدا اذا صلى ، ارايت ان كان على الهدى او امر بالتقوى ، ارايت ان كذب وتولى ، الم يعلم بان الله يرى) الخ السورة

وقوله (وهو شديد المحال الخ) تضمنت هذه الآيات اثبات صفتى المكر والكيد وهما من صفات الفعل الاختيارية ، ولكن لا ينبغى ان يشتق له من هاتين الصفتين اسم ، فيقال ماكر وكائد بل يوقف عندما ورد به النص من انه خير الماكرين ، وانه يكيد لاعدائه الكافرين .

اما قوله سبحانه (وهو شديد المحال) فمعناه شديد الاخذ بالعقوبة كما فى قوله تعالى (ان بطش ربك لشديد) (ان اخذه اليم شديد) .

وقال ابن عباس : معناه شديد الحول ، وقال مجاهد : شديد القوة والاقوال متقاربة .

واما قوله (والله خير الماكرين) فمعناه انفذهم واسرعهم مكرا .
وقد فسر بعض السلف مكر الله بعباده بانه استدراجهم بالنعم من حيث لا يعلمون ، فكلما احدثوا ذنبا احدث لهم نعمة ، وفى

وَقَولُهُ (وَمَكَرُوا مَكراً وَمَكَرنا مَكراً وَهُم لَا يَشعُرُونَ) وَقَولُهُ (إِنَّهُم يَكِيدُونَ كَيداً وَأَكِيدُ كَيداً) وَقَولُهُ (إِنْ تُبدُو خَيراً أَو تُخفُوهُ

الحديث « اذا رايت الله يعطى العبد من الدنيا ما يحب وهو مقيم على معصيته فاعلم انما ذلك منه استدراج .

وقد نزلت هذه الآية فى شان عيسى عليه السلام حين اراد اليهود قتله فدخل بيتا فيه كوة وقد ايده الله بجبريل عليه السلام فرفعه الى السماء من الكوة ، فدخل عليه يهودا ليدلهم عليه فيقتلوه فالقى الله شبه عيسى على ذلك الخائن ، فلما دخل البيت فلم يجد فيه عيسى خرج اليهم وهو يقول ما فى البيت احد ، فقتلوه وهم يرون انه عيسى فذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله) .

واما قوله تعالى (ومكروا مكرا الخ) فهى فى شأن الرهط التسعة من قوم صالح عليه السلام حين تقاسموا بالله لنبيتنه واهله ، اى ليقتلنه بياتا هو واهله ثم ليقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله ، فكان عاقبة هذا المكر منهم ان مكر الله بهم فدمرهم وقومهم اجمعين .

قوله (ان تبدوا خيرا الخ) هذه الآيات تضمنت اثبات صفات العفو والقدرة والمغفرة والرحمة والعزة والتبارك والجلال والاكرام .

فالعفو الذى هو اسمه تعالى معناه المتجاوز عن عقوبة عباده اذا هم تابوا اليه وأنابوا كما قال تعالى (وهو الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات) .

ولما كان اكمل العفو ما كان عن قدرة تامة على الانتقام والمؤاخذة جاء هذان الاسمان الكريمان العفو والقدير ، مقترنين فى هذه الآية وفى غيرها .

واما القدرة فهى الصفة التى تتعلق بالممكنات ايجادا واعداما

أو تعفو عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً .وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) وقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

فكل ما كان ووقع من الكائنات واقع بمشيئته وقدرته كما في الحديث « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » وأما قوله تعالى (وليعفوا وليصفحوا(٣) الآية ، فقد نزلت في شأن ابي بكر رضى الله عنه حين حلف لاينفق على مسطح بن اثاثة ، وكان ممن خاضوا في الافك ، وكانت ام مسطح بنت خالة ابى بكر ، فلما نزلت هذه الآية قال ابو بكر : والله انى لاحب أن يغفر الله لى ووصل مسطحا .

وأما قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فقد نزلت في شأن عبد الله بن ابى بن سلول رئيس المنافقين ، وكان في بعض الغزوات قد اقسم ليخرجن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو واصحابه من المدينة فنزل قوله تعالى (يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل) يقصد بالاعز قبحه الله نفسه واصحابه . ويقصد بالاذل رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فرد الله عز وجل عليه بقوله (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون) .

والعزة صفة اثبتها الله عز وجل لنفسه ، قال تعالى (وهو العزيز الحكيم) وقال (وكان الله قويا عزيزا) واقسم بها سبحانه كما في حديث الشفاعة « وعزتى وكبريائى وعظمتى لاخرجن منها من قال لا اله الا الله » واخبر عن ابليس انه قال « فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين » .

وفي صحيح البخاري وغيره عن ابى هريرة « بينا أيوب عليه السلام يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل يحثى في ثوبه فناداه ربه : يا أيوب الم اكن اغنيتك عما ترى ؟ قال بلى وعزتك

وَقَولَه عَن إِبلِيس (فَبِعِزَّتِكَ لَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعِين) وَقَولَهُ (تَبَارَكَ اسمُ رَبِّكَ ذِي الجَلَالِ وَالإِكرَام) .

وَقَولَهُ (فَاعبُدهُ وَاصطَبِر لِعِبَادَتِهِ هَل تَعلَمُ لَهُ سَمِيّاً ـ وَلَم يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَد

ولكن لا غنى لى عن بركتـــك » .

وقد جاء فى حديث الدعاء الذى علمه النبى صلى الله عليه وسلم لما كان به وجع « اعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما اجد واحاذر » .

والعزة تاتى بمعنى الغَلَبة والقهر من عَزَّيَعُزُّ بضـــم العين فى المضارع يقال عزه اذا غلبه ، وتاتي بمعنى القوة والصلابة من عَزَّ يَعَزُّ بفتحها ومنه ارض عزاز للصلبة الشديدة ، وتاتى بمعنى علو القدر والامتناع من الاعداء من عَزَّ يَعِزُّ بكسرها ، وهذه المعانى كلها ثابتة لله عـــز وجـــل .

واما قوله تعالى (تبارك اسم ربك) فانه من البركة بمعنى دوام الخير وكثرته ، وقوله (ذو الجلال) اى صاحب الجـــلال والعظمة سبحانه الذى لا شىء اجل ولا اعظم منه (والاكـــرام) الذى يكرم عما لا يليق به وقيل الذى يكرم عباده الصالحين بأنـــواع الكرامة فى الدنيا والاخرة والله اعلم .

قوله (فاعبده الخ) تضمنت هذه الآيات الكريمة جملة مـــن صفات القلوب وهى نفى السمى والكفؤ والنديد والولد والشريك والولى من ذل وحاجة . كما تضمنت بعض صفـــات الاثبات من الملك والحمد والقدرة والكبرياء والتبارك .

اما قوله تعالى (هل تعلم له سميا) فقد قال شيخ الاسلام رحمه الله « قال اهل اللغة : هل تعلم له سميا ، اى نظيرا استحـــق مثل اسمه ويقال مساميا يساميه ، وهذا معنى ما يروى عن ابـــن عباس « هل تعلم له سميا » ، مثلا او شبيها) .

وَقَوْلُهُ (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُو ن ـــ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُم كَحُبِّ اللَّهِ)

والاستفهام فى الآية انكارى معناه النفى ، أى لا تعلم له سميا .

واما قوله (ولم يكن له كفوا احد) فالمراد بالكفؤ المكافىء المساوى . فهذه الآية تنفى عنه سبحانه النظير والشبيه من كل وجه لأن (احداً) وقع نكرة فى سياق النفى فيعم ، وقد تقدم الكلام على تفسير سورة الاخلاص كلها فليرجع اليها .

واما قوله (فلا يجعلوا لله انداداً الخ) فالانداد جمع ند ومعناه كما قيل النظير المناوىء ، ويقال ليس لله نِدّ ولا ضِدّ ، والمراد نفى ما يكافئه ويناوئه ، ونفى ما يضاده وينافيه .

وجملة (وانتم تعلمون) وقعت حالا من الواو فى(تجعلوا)، المعنى اذا كنتم تعلمون ان الله هو وحده الذى خلقكم ورزقكم وان هذه الآلهة التى جعلتموها له نظراء وامثال وساويتموها به فى استحقاق العبادة لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة ولا تملك لكم ضرا ولا نفعا فاتركوا عبادتها وافردوه سبحانه بالعبادة والتعظيم .

واما قوله (ومن الناس من يتخذ الخ) فهو اخبار من الله عن المشركين بانهم يحبون آلهتهم كحبهم لله عز وجل ، يعنى يجعلونها مساوية له فى الحب « والذين آمنوا اشد حبا لله » من حب المشركين لآلهتهم لانهم اخلصوا له الحب وافردوه به . اما حب المشركين لآلهتهم فهو موزع بينها ، ولا شك ان الحب اذا كان لجهة واحدة كان امكن واقوى . وقيل : المعنى انهم يحبون آلهتهم كحب المؤمنين لله والذين آمنوا اشد حبا لله من الكفار لاندادهم .

وَقولُهُ (وَقُلِ الحَمدُ لِلهِ الذِي لَم يَتَّخِذ وَلَداً وَلَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَلَم يَكُن لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذلِّ وَكَبِّرهُ تَكبِيراً ـــ يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ)

واما قوله تعالى (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية ، فقد تقدم الكلام فى معنى الحمد ، وانه الثناء باللسان على النعمة وغيرها ، وقلنا ان اثبات الحمد له سبحانه متضمن لاثبات جميع الكمالات التى لا يستحق الحمد المطلق الا من بلغ غايتها .

ثم نفى سبحانه عن نفسه ما ينافى كمال الحمد من الولد والشريك والولى من الذل ، اى من فقر وحاجة ، فهو سبحانه لا يوالى احدا من خلقه من اجل ذلة وحاجة اليه ، ثم أمر عبده ورسوله ان يكبره تكبيرا ، اى يعظمه تعظيما وينزهه عن كل صفة نقص وصفه بها اعداؤه من المشركين .

واما قوله (يسبح لله ، الخ) فالتسبيح هو التنزيه والابعاد عن السوء كما تقدم .

ولا شك ان جميع الاشياء فى السموات وفى الارض تسبح بحمد ربها وتشهد له بكمال العلم والقدرة والعزة والحكمة والتدبير والرحمة قال تعالى (وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)

وقد اختلف فى تسبيح الجمادات التى لا تنطق هل هو بلسان الحال أو بلسان المقال وعندى ان الثانى ارجح بدليل قوله تعالى (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) اذ لو كان المراد تسبيحها بلسان الحال لكان ذلك معلوما فلا يصح الاستدراك ، وقد قال تعالى خبرا عن داود عليه السلام (انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة كل له اواب) .

وَقَوْلُهُ (تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً الذِي لَهُ مُلكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ وَلَم يَتَّخِذ وَلَداً وَلَم يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقدِيراً) .

وَقَوْلُهُ (مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ ، سُبحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ —

واما قوله تعالى (تبارك الذى الخ) فقد قلنا ان معنى تبارك من البركة وهى دوام الخير وكثرته ولكن لا يلزم من تلك الزيادة سبق النقص ، فان المراد تجدد الكمالات الاختيارية التابعة لمشيئته وقدرته ، فانها تتجدد فى ذاته على وفق حكمته ، فالخلو عنها قبل اقتضاء الحكمة لها لا يعتبر نقصا .

وقد فسر بعضهم التبارك بالثبات وعدم التغير ، ومنه سميت البركة لثبوت مائها وهو بعيد ، والمراد بالفرقان القرآن ، سمى بذلك لقوة تفرقته بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والتعبير (ينزل) بالتشديد لافادة التدرج فى النزول ، وانه لم ينزل جملة واحدة ، والمراد بعبده محمد صلى الله عليه وسلم والتعبير عنه بلقب العبودية للتشريف كما سبق ، والعالمين جمع عالم ، وهو جمع لم يعقل، واختلف فى المراد به ، فقيل الانس ، وقيل الانس والجن ، وهو الصحيح ، فقد ثبت أن النبى صلى الله عليه وسلم مرسل الى الجن ايضا ، وأنه يجتمع بهم ويقرأ عليهم القرآن ، وان منهم نفرا أسلم حين سمع القرآن وذهب ينذر قومه به ، كما قال تعالى (واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين) والنذير والمنذر هو من يعلم بالشىء مع التخويف وضده البشير او المبشر وهو من يخبرك بما يسرك .

وقوله (ما اتخذ الله من ولد الخ) تضمنت هذه الآية الكريمة

عَالِمَ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُون ، فَلَا تَضرِبُوا لِلهِ الأَمثَالَ إِنَّ اللهَ يَعلَمُ وَأَنتُم لَا تَعلَمُون .

ايضا جملة من صفات التنزيه التى يراد نفى ما لا يليق بالله عز وجل عنه ، فقد نزه سبحانه نفسه فيها عن اتخاذ الولد ومن وجود الـــه خالق معه وعما يصفه به المفترون الكذابون ، كما نهى عن ضرب الامثال له والاشراك به بلا حجة ولا برهان ، والقول عليه سبحانه بلا علم ولا دليـــل .

فهذه الآية تضمنت اثبات توحيـــد الالهيـــة واثبات توحيـــد الربوبية ، فان الله بعدما اخبر عن نفسه بعدم وجود اله معـــــه اوضح ذلك بالبرهان القاطع والحجة الباهرة فقال (اذا) اى اذ لو كان معه آلهة كما يقول هؤلاء المشركون لذهب كل اله بما خلـــق ولعـــلا بعضهم على بعض .

وتوضيح هذا الدليل أن يقال : اذا تعددت الآلهة فلابد ان يكون لكل منهم خلق وفعل ولا سبيل الى التعاون فيما بينهم فـــان الاختلاف بينهم ضرورى ، كما ان التعاون بينهم فى الخلق يقتضــــى عجز كل منهم عند الانفراد ، والعاجز لا يصلح الها ، فلابد ان يستقل كـــل منهم بخلقه وفعله ، وحينئذ فاما ان يكونوا متكافئين فى القدرة لا يستطيع كل منهم ان يقهر الآخرين ويغلبهم فيذهب كل منهم بما خلق ويختص بملكـــه كما يفعل ملوك الدنيـــا من انفراد كل بمملكته اذا لم يجـــد سبيلا لقهر الآخرين ، واما ان يكون احدهم اقوى مـــن الآخرين فيغلبهم ويقهرهم وينفرد دونهم بالخلق والتدبير ، فلابد اذا مع تعدد الآلهة من احد هذين الامرين ، اما ذهاب كل بما خلق او علو بعضهم علـــى بعض .

وذهاب كل بما خلق غير واقع لانه يقتضى التنافر والانفصال بين

قُل إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعلَمُونَ) .

اجزاء العالم مع ان المشاهدة تثبت ان العالم كله كجسم واحد مترابط الاجزاء متسق الاتجاه فلا يمكن ان يكون الا اثرا لاله واحد وعلو بعضهم على بعض يقتضى أن يكون الاله هو العالي وحده .

واما قوله تعالى (فلا تضربوا لله الامثال) فهو نهي له أن يشبهوه بشيء من خلقه فانه سبحانه له المثل الاعلى الذى لا يشركه فيه مخلوق.

وقد قدمنا أنه لا يجوز أن يستعمل فى حقه من الاقيسة ما يقتضى المماثلة او المساواة بينه وبين غيره كقياس التمثيل وقياس الشمول . وانما يستعمل فى ذلك قياس الأولَى الذى مضمونه أن كل كمال وجودى غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف به المخلوق ، فالخالق أولَى ان يتصف به لانه هو الذى وهب المخلوق ذلك الكمال ، ولانه لو لم يتصف بذلك الكمال مع امكان أن يتصف به لكان فى الممكنات من هو اكمل منه وهو محال وكذلك كل نقص يتنزه عنه المخلوق فالخالق أولَى بالتنزه عنه .

واما قوله (قل انما حرم الخ) فانما اداة قصر تفيد اختصاص الاشياء المذكورة بالحرمة فيفهم أن من عداها من الطيبات فهو مباح لا حرج فيه ، كما افادته الآية التى قبلها .

والفواحش جمع فاحشة وهى الفعلة المتناهية فى القبح وخصها بعضهم بما تضمن شهوة ولذة من المعاصى كالزنا واللواط ونحوهما من الفواحش الظاهرة ، وكالكبر والعجب وحب الرياسة من الفواحش الباطنة .

وَقَولُهُ (الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى) فِي سَبعِ مَوَاضِعَ ، فِي سُورَةِ الأَعرَافِ قَولُهُ (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيهِ السَّلَامُ (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) .

واما الاثم فمنهم من فسره بمطلق المعصية فيكون المراد منه ما دون الفاحشة ، ومنهم من خصه بالخمر فانها جُمَّاع الاثم ، واما البغى بغير الحق فهو التسلط والاعتداء على الناس من غير ان يكون ذلك على جهة القصاص والمماثلة .

وقوله (وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) وحرم ان تعبدوا مع الله غيره وتتقربوا اليه باى نوع من انواع العبادات والقربات كالدعاء والنذر والذبح والخوف والرجاء ونحو ذلك ، مما يجب ان يخلص فيه العبد قلبه ويسلم وجهه لله وحرم ان يتخذوا من دونه سبحانه أولياء يشرعون لهم من الدين ما لم يأذن به الله فى عباداتهم ومعاملاتهم كما فعل اهل الكتاب مع الاحبار والرهبان حيث اتخذوهم اربابا من دون الله فى التشريع فاحلوا ما حرم الله وحرموا ما احل الله فاتبعوهم فى ذلك وقوله « ما لم ينزل به سلطانا » قيد لبيان الواقع ، فان كل ما عبد او اتبع او اطيع من دون الله قد فعل به ذلك من غير سلطان .

واما القول على الله بلا علم فهو باب واسع جدا يدخل فيه كل خبر من الله بلا دليل ولا حجة ، كنفى ما اثبته او اثبات ما نفاه او الالحاد فى آياته بالتحريف والتأويل .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه أعلام الموقعين (وقد حرم الله القول عليه بغير علم فى الفتيا والقضاء وجعله من اعظم المحرمات

وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعدِ (اللهُ الذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرونَهَا ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ طَهَ (الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى) وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرقَانِ (ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ) .

بل جعله في المرتبة العليا منها) قال تعالى (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الآية ، فرتب المحرمات اربع مراتب وبدأ باسهلها وهو الفواحش وثنى بما هو اشد تحريما منه وهو الاثم والظلم ثم ثلث بما هو اعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه ثم ربع بما هو اعظم تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في اسمائه وصفاته وافعاله في دينه وشرعه .

وقوله (الرحمن على العرش استوى الخ) هذه هي المواضع السبعة التي اخبر فيها سبحانه باستوائه على العرش وكلها قطعية الثبوت ، لانها من كتاب الله ، فلا يملك الجهمي المعطل لها ردا ولا انكارا ، كما انها صريحة في بابها لا تحتمل تأويلا ، فان لفظ استوى في اللغة اذا عدي بعلى لا يمكن ان يفهم منه الا العلو والارتفاع ، ولهذا لم تخرج تفسيرات السلف لهذا اللفظ عن اربع عبارات ، ذكرها العلامة ابن القيم في النونية حيث قال :

فَلَهُمْ عِبَارَاتٌ عَلَيهَا أَربَعٌ ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلفَارِسِ الطَّعَّانِ
وَهِيَ استَقَرَّ وَقَدْ عَلَا وَكَذَلِكَ ارْ ... تَفَعَ الذِي مَا فِيهِ مِنْ نُكْرَانِ
وَكَذَاكَ قَدْ صَعِدَ الذِي هُوَ رَابِعٌ ... وَأَبُو عُبَيْدَةَ صَاحِبُ الشَّيبَانِي
يَختَارُ هَذَا القَوْلَ فِي تَفْسِيرِهِ ... أَدْرَى مِنَ الجَهْمِيِّ بِالقُرْآنِ

فاهل السنة والجماعة يؤمنون بما اخبر به سبحانه عن نفسه من انه مستو على عرشه بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شانه كما قال مالك وغيره (الاستواء معلوم والكيف مجهول) اما ما يشغب

وَقَالَ فِي سُورَةِ الم السَّجْدَةِ (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) وَقَالَ فِي سُورَةِ الحَدِيدِ (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

به اهل التعطيل من ايراد اللوازم الفاسدة على تقرير الاستواء فهى لا تلزمنا لاننا لا نقول بان فوقيته على العرش كفوقية المخلوق على المخلـــوق .

واما ما يحاولون به صرف هذه الآيات الصريحة عن ظواهرها بالتاويلات الفاسدة التى تدل على حيرتهم واضطرابهم كتفسيرهم استوى باستولى او حملهم (على) على معنى الى واستوى بمعنى قصد الى آخر ما نقله منهم حامل لواء التجهم والتعطيل زاهد الكوثرى فكلها تشغيب بالباطل وتغبير فى وجه الحق لا يغنى عنهم فى قليل ولا كثير وليت شعرى ماذا يريد هؤلاء المعطلة أن يقولوا ؟ ايريدون ان يقولوا ليس فى السماء رب يقصد ولا فوق العرش اله يعبد ؟ فاين يكون اذن ؟ ولعلهم يضحكون منا حين نسال عنه باين ، ونسوا ان اكمل الخلق واعلمهم بربهم صلوات الله عليه وسلامه قد سال عنه باين حين قال للجارية اين الله ؟ ورضى جوابها حين قالت فى السماء ، وقد أجاب كذلك من ساله باين كان ربنا قبل ان يخلق السموات والارض بانه كان فى عماء ، الحديث ، ولم يرو عنه أنه زجر السائل ولا قال له انــك غلطت فى السؤال .

أن قصارى ما يقوله المتحذلق منهم فى هذا الباب ان الله تعالى كان ولا مكان ، ثم خلق المكان وهو الآن على ما كان قبل خلق المكان

فماذا يعنى هذا المخرف بالمكان الذى كان الله ولم يكن ؟ هل يعنى به تلك الامكنة الوجودية التى هى داخل محيط العالم ؟ فهذه امكنة

وَقَوْلُهُ (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ــ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ــ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ــ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ــ

حادثة ونحن لا نقول بوجود الله فى شىء منها اذ لا يحصره ولا يحيط به شىء من مخلوقاتــــه .

واما اذا اراد بها المكان العدمى الذى هو خلاء محض لا وجــود فيه ، فهذا لا يقال انه لم يكن ثم خلق ، اذا لا يتعلق به الخلق فانــه أمر عدمى ــ فاذا قيل ان الله فى مكان بهذا المعنى كما دلت عليــه الايات والاحاديث فاى محذور فى هذا ؟

بل الحق ان يقال كان الله ولم يكن شيء قبله ثم خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ثم استوى على العرش ، و (ثم) هنا للترتيب الزمانى لا لمجرد العطف .

وقوله (يا عيسى الخ) هذه الايات جاءت مؤيدة لما دلت عليه الايات السابقة من علوه تعالى وارتفاعه فوق العرش مباينا للخلق ، وناعية على المعطلة جحودهم وانكارهم لذلك ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا . ففى الاية الاولى ينادى الله رسوله وكلمته عيسى بــن مريم عليه الصلاة والسلام بانــه متوفيه ورافعه اليه حين دبــر اليهود قتله ، والضمير فى قوله (الى) هو ضمير الرب جل شأنه لا يحتمل غير ذلك ، فتأويله بأن المراد الى محل رحمتى أو مكان ملائكتى الخ لا معنى له ومثل ذلك يقال أيضا فى قوله سبحانه ردا على ما ادعاه اليهود من قتل عيسى وصلبه (بل رفعه الله اليه) .

وقد اختلف فى المراد بالتوفى المذكور فى الاية فحمله بعضهم على الموت ، والاكثرون على ان المراد به النوم ، ولفظ التوفى يستعمــل فيه قال تعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) ؟

أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى فَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِباً .

وَقَوْلُهُ (أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيــــــــــــر) ـــ

ومنهم من زعم ان فى الكلام تقديما وتاخيرا وان التقدير انــى رافعك ومتوفيك ، اى مميتك بعد ذلك . والحق انه عليه السلام رفع حيا وانه سينزل قرب قيام الساعة لصحة الحديث بذلك .

واما قوله سبحانه (اليه يصعد الكلم الطيب) فهو صريح ايضـا فى صعود اقوال العباد واعمالهم الى الله عز وجل يصعد بها الكــرام الكاتبون كل يوم عقب صلاة العصر وعقب صلاة الفجر كما جاء فى الحديث (فيعرج الذين باتوا فيكم فيسالهم ربهم ـــ وهو اعلم ـــ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون ياربنا اتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ؟

واما قوله سبحانه حكاية عن فرعون (ياهامان ... الخ) فهو دليل على أن موسى عليه السلام أخبر فرعون الطاغية بان الهه فى السماء فأراد أن يتلمس الاسباب للوصول اليه تمويها على قومه ، فأمر وزيره هامان ان يبنى له الصرح ، ثم عقب على ذلك بقوله (وانى لاظنه) ـــ اى موسى ـــ كاذبا فيما أخبر به من كون الهه فى السماء . فمن اذا اشبه بفرعون واقربه اليه نسبا ؟ نحن ام هؤلاء المعطلة ؟ ان فرعون كذب موسى فى كون الهه فى السماء ، وهو نفس ما يقوله هؤلاء .

قوله (أأمنتم الخ) هاتان الآيتان فيهما التصريح بأن الله عــز وجل فى السماء ولا يجوز حمل ذلك على أن المراد به العذاب او الامر او الملك كما يفعل المعطلة لانه قال (من) وهى للعاقل ، وحملها على الملك اخراج اللفظ عن ظاهره بلا قرينة توجب ذلك .

ولا يجوز ان يفهم من قوله فى السماء ان السماء ظرف له سبحانه

(هُوَ الذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أيامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ ، يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُم أَينَمَا كُنتُم وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ) .

بل ان اريد بالسماء هذه المعروفة ، ففي بمعنى (على) كما في قوله تعالى (لاصلبنكم في جذوع النخل) وان اريد بها جهة العلو (ففي) على حقيقتها فانه سبحانه في أعلى العلو .

قوله (هو الذى خلق السموات الخ) تضمنت هذه الاية الكريمة اثبات صفة المعية له عز وجل وهي على نوعين :

١ ـ معية عامة : شاملة لجميع المخلوقات ، فهو سبحانه مع كل شيء بعلمه وقدرته وقهره واحاطته ، لا يغيب عنه شيء ولا يعجزه ، وهذه هي المعية المذكورة في الاية .

ففي هذه الاية يخبر عن نفسه سبحانه بانه هو وحده الذى خلق السموات والارض يعني اوجدهما على تقدير وترتيب سابق في مدة ستة أيام ، ثم علا بعد ذلك وارتفع على عرشه لتدبير أمور خلقه ، وهو مع كونه فوق عرشه لا يغيب عنه شيء من العالمين العلوى والسفلى ، فهو يعلم ما يلج ، اى يدخل في الارض ، وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج ، اى يصعد فيها ـ ولا شك أن من كان علمه وقدرته محيطين بجميع الاشياء فهو مع كل شيء ، ولذلك قال (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) .

قوله (ما يكون من نجوى الخ) يثبت سبحانه شمول علمه واحاطته بجميع الاشياء ، وانه لا يخفى عليه نجوى المتناجين ، وانه شهيد على الاشياء كلها مطلع عليها .

واضافة « نجوى » الى ثلاثة من اضافة الصفة الى الموصوف

وَقَولُهُ (مَا يَكُونُ مِن نَجوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم وَلَا خَمسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُم وَلَا أَدنَى مِن ذَلِكَ وَلَا اكثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ — لَا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا)

والتقدير ما يكون من ثلاثة نجوى ، اى متناجين .

واما الآيات الباقية فهى فى اثبات المعية الخاصة التى هى معيته لرسله تعالى واوليائه بالنصر والتاييد والمحبة والتوفيق والالهام .

فقوله تعالى (لا تحزن ان الله معنا) حكاية عما قاله عليه الصلاة والسلام لابى بكر الصديق وهما فى الغار ، فقد احاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا فى طلبه عليه السلام ، فلما راى ابو بكر ذلك انزعج وقال : والله يا رسول الله لو نظر احدهم تحت قدمه لابصرنا ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم ما حكاه الله عز وجل هنا (لا تحزن ان الله معنا) .

فالمراد بالمعية هنا معية النصر والعصمة من الاعداء .

واما قوله (اننى معكما اسمع وارى) فقد تقدم الكلام ؟ وانها خطاب لموسى وهارون عليهما السلام ان لا يخافا بطش فرعون بهما ، لان الله عز وجل معهما بنصره وتاييده .

وكذلك بقية الآيات يخبر الله فيها عن معيته للمتقين الذين يراقبون الله عز وجل فى امره ونهيه ويحفظون حدوده وللمحسنين الذين يلتزمون الاحسان فى كل شىء ، والاحسان فى كل شىء بحسبه فهو فى العبادة مثلا ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك كما جاء فى حديث جبريل عليه السلام .

وكذلك يخبر عن معيته للصابرين الذين يحبسون انفسهم على

وَقَولُهُ (إِنَّنِي مَعَكُمَا اسمَعُ وَأَرَى ـ إِنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتقَوا وَالذِينَ هُم مُحسِنُونَ ـ وَاصبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين ـ كَم مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذنِ اللهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِين) .

وَقَولُهُ (وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ـ وَمَن أَصدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً)

ما تكره ويتحملون المشاق والاذى فى سبيل الله وابتغاء وجهه صبرا على طاعة الله وصبرا عن معصيته وصبرا على قضائه .

تضمنت هذه الآيات اثبات صفة الكلام لله عز وجل .

وقد تنازع الناس حول هذه المسالة نزاعا كبيرا . فمنهم من جعل كلامه سبحانه مخلوقا منفصلا منه ، وقال ان معنى متكلم خالق للكلام وهم المعتزلة . ومنهم من جعله لازما لذاته ازلا وابدا لا يتعلق بمشيئته وقدرته ونفى عنه الحرف والصوت وقال انه معنى واحد فى الازل ، وهم الكلابية والاشعرية .

ومنهم من زعم أنه حروف وأصوات قديمة لازمة للذات ، وقال انها مقترنة فى الازل ، فهو سبحانه لا يتكلم بها شيئا بعد شىء وهم بعض الغلاة .

ومنهم من جعله حادثا قائما بذاته تعالى ومتعلقا بمشيئته وقدرته ولكن زعم أن له ابتداء فى ذاته وان الله لم يكن متكلما فى الازل ، وهم الكرامية . ويطول بنا القول لو اشتغلنا بمناقشة هذه الاقوال وافسادها على أن فسادها بين لكل ذى فهم سليم ونظر مستقيم .

وخلاصة مذهب اهل السنة والجماعة فى هذه المسالة ان الله تعالى لم يزل متكلما اذا شاء ، وأن الكلام صفة له قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، فهو لم يزل ولا يزال متكلما اذا شاء وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه كما تقول المعتزلة ولا لازما

١ وَإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بنَ مَريَمَ ــ وَتَمَّت كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدقاً وَعَدلاً)
وَقولُهُ (وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً ــ مِنهُم مَن كَلَّمَ اللهُ ــ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ــ وَنَادَينَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيمَنِ وَقَرَّبنَاهُ نَجِيّاً)
وَقولُهُ (وَإذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائتِ القَــومَ الظَّالِمِين ــ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلكُمَا الشَّجَرَةِ) .

١ذاته لزوم الحياة لها كما تقول الاشاعرة بل هو تابع لمشيئته وقدرته .

والله سبحانه نادى موسى بصوت ونادى آدم وحواء بصوت ، وينادي عباده يوم القيامة بصوت ويتكلم بالوحي بصوت ، ولكن الحروف والاصوات التي تكلم الله بها صفة له غير مخلوقة ولا تشبه اصوات المخلوقين وحروفهم ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده ، فان الله لا يماثل المخلوقين في شيء من صفاته .

والآيتان الاوليان هنا وهما من سورة النساء تنفيان ان يكون احد اصدق حديثا وقولا من الله عز وجل ، بل هو سبحانه أصدق من كل احد في كل ما يخبر به ، وذلك لان علمه بالحقائق المخبر عنها اشمل واضبط ، فهو يعلمها على ما هي به من كل وجه ، وعلم غيره ليس كذلك .

واما قوله (واذ قال الله يا عيسى الخ) فهو حكاية لما سيكون يوم القيامة من سؤال الله لرسوله وكلمته عيسى عما نسبه اليه الذين الهوه وامه من النصارى من انه هو الذى أمرهم بأن يتخذوه وامه الهين من دون الله . وهذا السؤال لاظهار براءة عيسى عليه السلام وتسجيل الكذب والبهتان على هؤلاء الضالين الاغبياء .

واما قوله (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) فالمراد صدقا في اخباره وعدلا في أحكامه لان كلامه تعالى اما اخبار وهي كلها في غاية الصدق ، واما امر ونهي وكلها في غاية العدل الذى لا جور فيه

وَقَولَهُ (وَيَومَ يُنَادِيهِم فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبتُمُ المُرسَلِينَ — وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ المُشرِكِينَ استَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسمَعَ كَلَامَ اللهِ — وَقَد كَانَ فَرِيقٌ مِنهُم يَسمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُم يَعلَمُونَ — يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللهِ قُل لَن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُم قَالَ اللهُ مِن قَبلُ — وَاتلُ مَا أُوحِيَ إِلَيكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ) .

لابتنائها على الحكمة والرحمة ، والمراد بالكلمة هنا الكلمات لانها اضيفت الى معرفة فتفيد معنى الجمع كما فى قولنا رحمة الله ونعمة الله .

واما قوله (وكلم الله موسى تكليما) وما بعدها من الآيات التى تدل على ان الله قد نادى موسى وكلمه تكليما ، وناجاه حقيقة من وراء حجاب وبلا واسطة ملك ، فهى ترد على الاشاعرة الذين يجعلون الكلام معنى قائما بالنفس بلا حرف ولا صوت ، فيقال لهم كيف سمع موسى هذا الكلام النفسى ؟ فان قالوا القى الله فى قلبه علما ضروريا بالمعانى التى يريد ان يكلمه بها لم يكن هناك خصوصية لموسى فى ذلك ، وان قالوا ان الله خلق كلاما فى الشجرة او فى الهواء ونحو ذلك لزم ان تكون الشجرة هى التى قالت لموسى (انى انا ربك) .

وكذلك ترد عليهم هذه الايات فى جعلهم الكلام معنى واحدا فى الازل لا يحدث منه فى ذاته شىء ، فان الله يقول (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) فهى تفيد حدوث الكلام عند مجىء موسى للميقات ، ويقول (وناديناه من جانب الطور الايمن) فهذا يدل على حدوث النداء عند جانب الطور الايمن ، والنداء لا يكون الا صوتا مسموعا . وكذلك قوله تعالى فى شان آدم وحواء (وناداهما ربهما) الاية ، فان هذا النداء لم يكن الا بعد الوقوع فى الخطيئة فهو حادث قطعا . وكذلك قوله تعالى (ويوم يناديهم الخ) فان

وَقولُهُ (إِنَّ هَذَا القُرآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسرَائيلَ أَكثَرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَختَلِفُونَ . وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلنَاهُ مُبَارَكٌ ـــ لَوْ أَنزَلنَا هَذَا القُرآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِن خَشيَةِ اللهِ ـــ وَإِذا بَدَّلنَا آيةً مَكَانَ آيةٍ وَاللهُ اعلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا انتَ مُفتَرٍ بَل اكثَرُهُم لاَ يَعلَمُونَ .

هذا النداء والقول سيكون يوم القيامة ، وفى الحديث « ما من عبد الا سيكلمه الله يوم القيامة ليس بينه ترجمان » .

قوله (وان احد من المشركين الخ) هذه الآيات الكريمة تفيد ان القرآن المتلو المسموع المكتوب بين دفتى المصحف هو كلام الله على الحقيقة وليس فقط عبارة او حكاية عن كلام الله كما يقوله الاشعرية ، واضافته الى الله عز وجل تدل على انه صفة له قائمة به وليست كاضافة البيت او الناقة ، فانها اضافة معنى الى الذات تدل على ثبوت المعنى لتلك الذات بخلاف اضافة البيت او الناقة فانهما اضافة اعيان ـــ وهذا يرد على المعتزلة فى قولهم انه مخلوق منفصل عن الله ، ودلت هذه الآيات ايضا على ان القرآن منزل من عند الله بمعنى ان الله تكلم به بصوت سمعه جبريل عليه السلام ، فنزل به واداه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعه من الرب جل شأنه .

وخلاصة القول فى ذلك ان القرآن العربى كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ واليه يعود . والله تكلم به على الحقيقة ، فهو كلامه حقيقة لا كلام غيره واذا قرأ الناس القرآن او كتبوه فى المصاحف لم يخرج ذلك عن ان يكون كلام الله ، فان الكلام انما يضاف حقيقة الى من قاله مبتدئا لا الى من بلغه مؤديا والله تكلم بحروفه ومعانيه بلفظ نفسه ليس شىء منه كلاما لغيره لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما والله تكلم به ايضا بصوت نفسه ، فاذا قرأه العباد قرأوه بصوت

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشرَى لِلمُسلِمِينَ . وَلَقَد نَعلَمُ انَّهُم يَقُولُونَ اِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلحِدُونَ اِلَيهِ أعجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) وَقَولُهُ (وُجُوهٌ يَومَئذٍ نَاضِرَة إلَى رَبِّهَا نَاظِرَة ـــ عَلَى الأَرَائكِ يَنظُرُون ـــ لِلَّذِينَ احسَنُوا الحُسنَى وَزِيَادَة)

انفسهم ، فاذا قال القارىء مثلا (الحمد لله رب العالمين) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه وكان هو قراه بصوت نفسه لا بصوت الله . وكما ان القرآن كلام فكذلك هو كتابه لانه كتبه فى اللوح المحفوظ ولانه مكتوب فى المصاحف قال تعالى (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وقال (انه لقرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدى سفرة كرام بررة) .

والقرآن فى الاصل مصدر كالقراءة ، كما فى قوله تعالى (ان قرآن الفجر كان مشهودا) .

ويراد به هنا ان يكون علما على هذا المنزل من عند الله المكتوب بين دفتى المصحف المتعبد بتلاوته المتحدى باقصر سورة منه .

وقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) يدل على ان ابتداء نزوله من عند الله عز وجل ، وان روح القدس جبريـــل عليه السلام تلقاه عن الله سبحانه بالكيفية التى يعلمها .

قوله (وجوه يومئذ ناضرة الخ) هذه الآيات تثبت رؤيـــة المؤمنين لله عز وجل يوم القيامة فى الجنة .

وقد نفاها المعتزلة بناء على نفيهم الجهة عن الله لان المرئى يجب ان يكون فى جهة من الرائى ، وما دامت الجهة مستحيلة وهى شرط فى الرؤية فالرؤية كذلك مستحيلة ، واحتجوا من النقل بقوله تعالـــى (لا تدركه الابصار) وقوله لموسى عليه السلام حين ساله الرؤية

وَقَولُهُ (لَهُم مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَينَا مَزِيدٌ) .

وَهَذَا البَابُ فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ . مَن تَدَبَّرَ القُرآنَ طَالِباً لِلهُدَى مِنهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الحَقِّ .

(لن تراني ولكن انظر الى الجبل فان استقر مكانه فسوف تراني) .

واما الاشاعرة فهم مع نفيهم الجهة كالمعتزلة يثبتون الرؤية ، ولذلك حاروا فى تفسير تلك الرؤية ، فمنهم من قال يرونه من جميع الجهات ومنهم من جعلها رؤية بالبصيرة لا بالبصر ، وقال المقصود زيادة الانكشاف والتجلى حتى كأنها رؤية عين .

وهذه الايات التى اوردها المؤلف حجة على المعتزلة فى نفيهم الرؤية . فان الاية الاولى عَدّى النظر فيها بالى فيكون بمعنى الابصار يقال نظرت اليه وابصرته بمعنى ومتعلق النظر هو الرب جل شأنه .

واما ما يتكلفه المعتزلة من جعلهم (ناظرة) بمعنى منتظرة و (الى) بمعنى النعمة ، والتقدير « ثواب ربها منتظرة » فهو تأويل مضحك .

واما الاية الثانية فتفيد ان أهل الجنة وهم على ارائكهم ، يعنى اسرتهم — جمع أريكة — ينظرون الى ربهم .

واما الآيتان الاخيرتان فقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم تفسير الزيادة بالنظر الى وجه الله عز وجل ويشهد لذلك ايضا قوله تعالى فى حق الكفار (كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) فدل حجب هؤلاء على ان أولياءه يرونه ، وأحاديث الرؤية متواترة فى المعنى عند اهل العلم بالحديث لا ينكرها الا ملحد زنديق .

واما ما احتج به المعتزلة من قوله تعالى (لا تدركه الابصار) فلا حجة لهم فيه ، لان نفى الادراك لا يستلزم نفى الرؤية ، فالمراد

ان الابصار تراه ولكن لا تحيط به رؤية كما ان العقول تعلمه ولكن لا تحيط به علما ، لان الادراك هو الرؤية على جهة الاحاطة فهو رؤية خاصة ونفى الخاص لا يستلزم نفى مطلق الرؤية وكذلك استدلالهم على نفى الرؤية بقوله تعالى لموسى عليه السلام (لن ترانى) لا يصلح دليلا بل الآية تدل على الرؤية من وجوه كثيرة منها :

١ ــ وقوع السؤال من موسى وهو رسول الله وكليمه ، وهو اعلم بما يستحيل فى حق الله من هؤلاء المعتزلة ، فلو كانت الرؤية ممتنعة لما طلبها .

٢ ــ ان الله عز وجل علق الرؤية على استقرار الجبل حال التجلى وهو ممكن والمعلق على الممكن ممكن .

٣ ــ ان الله تجلى للجبل بالفعل وهو جماد ، فلا يمتنع اذا ان يتجلى لاهل محبته واصفيائه .

واما قولهم ان (لن) لتأبيد النفى وانها تدل على عدم وقوع الرؤية اصلا فهو كذب على اللغة ، فقد قال تعالى حكاية عن الكفار (ولن يتمنوه ابدا) ثم قال (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) فاخبر عن عدم تمنيهم للموت (بلن) ثم اخبر عن تمنيهم له وهم فى النار .

واذا فمعنى قوله (لن ترانى) لن تستطيع رؤيتى فى الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته سبحانه ، ولو كانت الرؤية ممتنعة لذاتها لقال انى لا ارى او لا يجوز رؤيتى او لست بمرئى ونحو ذلك والله اعلم .

(مباحث عامة حول آيات الصفات)

ان الناظر فى آيات الصفات التى ساقها المؤلف ــ رحمه الله ــ

يستطيع أن يستنبط منها قواعد واصولا هامة يجب الرجوع اليهما في هذا الباب .

الاصل الاول : اتفق السلف على أنه يجب الايمان بجميع الاسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الافعال ، مثال ذلك (القدرة) مثلا يجب الايمان بانه سبحانه على كل شيء قدير . والايمان بكمال قدرته ، والايمان بان قدرته نشأت عنها جميع الكائنات ، وهكذا بقية الاسماء الحسنى على هذا النمط . وعلى هذا فما ورد في هذه الآيات التي ساقها المصنف من الاسماء الحسنى فانها داخلة في الايمان بالاسم ، وما فيها من ذكر الصفات مثل عزة الله وقدرته وعلمه وحكمته وارادته ومشيئته فانها داخلة في الايمان بالصفات وما فيها من ذكر الافعال المطلقة والمقيدة ، مثل يعلم كذا ويحكم ما يريد ، ويرى ويسمع ، وينادي ويناجي ، وكلم ويكلم ، فانها داخلة في الايمان بالافعال .

الاصل الثاني : دلّت هذه النصوص القرآنية على أن صفات الباري قسمان :

١ ــ صفات ذاتية لا تنفك عنها الذات ، بل هي لازمة لها ازلا وابدا ولا تتعلق بها . مشيئته تعالى وقدرته ، وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة والقوة والعزة والملك والعظمة والكبرياء والمجد والجلال الىخ .

٢ ــ صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن وتحدث بمشيئته وقدرته ، آحاد تلك الصفات من الافعال وان كان هو لم يزل موصوفا بها بمعنى ان نوعها قديم وأفرادها حادثة ، فهو سبحانه لم يزل فعالا لما يريد ، ولم يزل ولا يزال يقول ويتكلم ويخلق ويدبر الامور وافعاله تقع شيئا فشيئا تبعا لحكمته وارادته فعلى المؤمن الايمان بكل ما نسبه الله لنفسه من الافعال المتعلقة

بذاته كالاستواء على العرش والمجيء والاتيان والنزول الى السماء الدنيا ، والضحك والرضى والغضب والكراهية والمحبة المتعلقة بخلقه كالخلق والرزق والاحياء والاماتة وانواع التدبير المختلفة .

الاصل الثالث : اثبات تفرد الرب جل شانه بكل صفة كمال وانه ليس له شريك او مثيل فى شيء منها

وما ورد فى الآيات السابقة من اثبات المثل الاعلى له وحده ونفى الند والمثل والكفء والسمى والشريك عنه يدل على ذلك كما يدل على انه منزه عن كل نقص وعيب وآفة .

الاصل الرابع : اثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الصفات ، لا فرق بين الذاتية منها كالعلم والقدرة والارادة والحياة والسمع والبصر ونحوها ، والفعلية كالرضا والمحبة والغضب والكراهة ، وكذلك لا فرق بين اثبات الوجه واليدين ونحوهما ، وبين الاستواء على العرش والنزول ، فكلها مما اتفق السلف على اثباته بلا تاويل ولا تعطيل ، وبلا تشبيه وتمثيل .

والمخالف فى هذا الاصل فريقان :

١ ــ الجهمية : ينفون الاسماء والصفات جميعا .

٢ ــ المعتزلة : فانهم ينفون جميع الصفات ويثبتون الاسماء والاحكام ، فيقولون عليم بلا علم وقدير بلا قدرة وحى بلا حياة الخ . وهذا القول فى غاية الفساد ، فان اثبات موصوف بلا صفة واثبات ما للصفة للذات المجردة محال فى العقل كما هو باطل فى الشرع .

اما الاشعرية ومن تبعهم فانهم يوافقون أهل السنة فى اثبات سبع صفات يسمونها صفات المعانى ويدعون ثبوتها بالعقل وهى

(فَصْــــلٌ)

ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم ، فَالسُّنَّةُ تُفَسِّــرُ الْقُرآنَ وَتُبَيِّنهُ وَتَدُلُّ عَلَيهِ وَتُعَبِّرُ عَنهُ .

الحياة والعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر والكـلام ، ولكنهم وافقوا المعتزلة فى نفى ما عدا هذه السبع من الصفات الخبرية التى صح بهـا الخبـر .

والكل محجوجون بالكتاب والسنة واجماع الصحابة والقرون المفضلة على الاثبات العـام .

قوله (ثم فى سنة رسول الله) عطف على قوله فيما تقدم ، وقد دخل فى هذه الجملة ما وصف الله به نفسه فى سورة الاخلاص الخ يعنى ودخل فيها ما وصف به الرسول صلى الله عليه وسلم ربه فيما وردت به السنة الصحيحـة .

والسنة هى الاصل الثانى الذى يجب الرجوع اليه ، والتعويل عليه بعد كتاب الله عز وجل قال تعالى (وانزل الله عليك الكتاب والحكمة) والمراد بالحكمة السنة ، وقال (ويعلمهم الكتاب والحكمة) وقال آمرا لنساء نبيه (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن مـن آيات الله والحكمة) وقال سبحانه (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وقال صلوات الله وسلامه عليه وآله (الا انى أوتيت القرآن ومثله معه) وحكم السنة حكم القرآن فى ثبوت العلم واليقين والاعتقاد والعمل ، فان السنة توضيح للقرآن وبيان للمراد منه تفصل مجمله وتقيد مطلقه وتخصص عمومه ، كما قال تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) .

واهل البدع والاهواء بازاء السنة الصحيحة فريقـان :

وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ التي تَلَقَّاهَا أَهلُ المَعرِفَةِ بِالقَبُولِ ، وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ .
فَمِنْ ذَلِكَ مِثْلُ قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا كُلَّ لَيلَةٍ حِينَ يَبقَى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرِ ، فَيَقُولُ مَن يَدعُونِي فَأَستَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسأَلُنِي فَأُعطِيهُ ؟ مَنْ يَستَغفِرُنِي فَأَغفِر لَهُ ؟ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

---

١ — فريق لا يتورع عن ردها وانكارها اذا وردت بما يخالف مذهبه بدعوى انها احاديث آحاد لا تفيد الا الظن ، والواجب فى باب الاعتقاد هو اليقين ، وهؤلاء هم المعتزلة والفلاسفة .

٢ — وفريق يثبتها ويعتقد بصحة النقل ولكنه يشتغل بتأويلها كما يشتغل بتأويل آيات الكتاب حتى يخرجها عن معانيها الظاهرة الى ما يريده من معان بالالحاد والتحريف ، وهؤلاء هم متأخرو الاشعرية واكثرهم توسعا فى هذا الباب الغزالى والرازى .

قوله (وما وصف الرسول به الخ) يعنى انه كما وجب الايمان بكل ما وصف الله به نفسه فى كتابه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، كذلك يجب الايمان بكل ما وصفه به أعلم الخلق بربه ومما يجب له وهو رسوله الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه وآلــه .

قوله (كذلك) اى ايمانا مثل ذلك الايمان خاليا من التحريف والتعطيل ومن التكييف والتمثيل بل اثبات لها على الوجه اللائق بعظمة الرب جل شأنه .

قوله (فمن ذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم الخ) الكلام على هذا الحديث من جهتين (الاولى) صحته من جهة النقل وقد ذكر المؤلف رحمه الله انه متفق عليه . ويقول الذهبى فى كتابه « العلو للعلى الغفار » ان احاديث النزول متواترة تفيد القطع ، وعلى هذا فلا مجال

لانكـــار أو جحـــود .

(الثانية) ما يفيده هذا الحديث وهو اخباره صلى الله عليه وسلم بنزول الرب تبارك وتعالي كل ليلة الخ . ومعنى هذا أن النزول صفة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته ، فهو لا يماثل نزول الخلق كما ان استواءه لا يماثل استواء الخلق .

يقول شيخ الاسلام رحمه الله فى تفسير ســـورة الاخلاص :

« فالرب سبحانه اذا وصفه رسوله بانه ينزل الى سماء الدنيا كل ليلة وانه يدنو عشية عرفة الى الحجاج وانه كلم موسى فى الواد الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة وانه استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها لم يلزم من ذلك ان تكون هذه الافعال من جنس ما نشاهده من نزول هذه الاعيـان المشهودة حتى يقال ذلك يستلزم تفريغ مكان وشغل آخر .

فاهل السنة والجماعة يؤمنون بالنزول صفة حقيقية لله عز وجل على الكيفية التى يشاء فيثبتون النزول كما يثبتون جميع الصفات التى ثبتت فى الكتاب والسنة ، ويقفون عند ذلك فلا يكيفون ولا يمثلون ولا ينفون ولا يعطلون ، ويقولون ان الرسول اخبرنا أنه ينزل ولكنه لم يخبرنا كيف ينزل ، وقد علمنا أنه فعال لما يريد ، وانه على كل شىء قـــديـــــر .

ولهذا ترى خواص المؤمنين يتعرضون فى هذا الوقت الجليل لالطاف ربهم ومواهبه ، فيقومون لعبوديته خاضعين خاشعين داعين متضرعين يرجون منه حصول مطالبهم التى وعدهم بها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوبَةِ عَبدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ » الحديثُ متَّفقٌ عليهِ .

قوله (لله اشد فرحا الخ) تتمة هذا الحديث كما فى البخارى وغيره « لله اشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل بارض فلاة دوية مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فنزل عنها فنام وراحلته عند راسه فاستيقظ وقد ذهبت ، فذهب فى طلبها فلم يقدر عليها حتى ادركه الموت من العطش فقال والله لارجعن فلاموتن حيث كان رحلى فرجع فنام فاستيقظ فاذا راحلته عند راسه فقال اللهم انت عبدى وانا ربك ، اخطأ من شدة الفرح » .

وفى هذا الحديث اثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام فى غيره من الصفات انه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به ، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته ، فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والانابة اليه وهو مستلزم لرضاه عن عبده التائب وقبوله توبته . واذا كان الفرح فى المخلوق على انواع فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب وقد يكون فرح اشر وبطر ، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله ، ففرحه لا يشبه فرح احد من خلقه لا فى ذاته ولا فى أسبابه ولا فى غاياته ، فسببه كمال رحمته واحسانه التى يحب من عباده أن يتعرضوا لها ، وغايته اتمام نعمته على التائبين المنيبين .

واما تفسير الفرح بلازمه وهو الرضى وتفسير الرضا بارادة الثواب ، فكل ذلك نفى وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه ، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم حيث توهموا ان هذه المعانى تكون فيه كما هى فى المخلوق — تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ كِلاَهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ » مُتفقٌ عَليهِ .

وَقَوْلُهُ « عَجِبَ رَبُّنَا مِن قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ خَيرِهِ ، يَنظُرُ إِلَيكُم أَزِلِينَ قَنِطِينَ فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعلَمُ أَنَّ فَرَجَكُم قَرِيبٌ » حَدِيثٌ حَسَنٌ .

قوله (يضحك الله الى رجلين الخ .) : يثبت اهل السنة والجماعة الضحك لله عز وجل كما افاده هذا الحديث وغيره على المعنى الذى يليق به سبحانه والذى لا يشبهه ضحك المخلوقين عندما يستخفهم الفرح أو يستفزهم الطرب ، بل هو معنى يحدث فى ذاته عند وجود مقتضيه ، وانما يحدث بمشيئته وحكمته ، فان الضحك انما ينشأ فى المخلوق عند ادراكه لامر عجيب يخرج عن نظائره ، وهذه الحالة المذكورة فى هذا الحديث ، كذلك فان تسليط الكافر على قتل المسلم مدعاة فى بادىء الراى لسخط الله على هذا الكافر وخذلانه ومعاقبته فى الدنيا والآخرة ، فاذا من الله على هذا الكافر بعد ذلك بالتوبة وهداه للدخول فى الاسلام وقاتل فى سبيل الله حتى يستشهد فيدخل الجنة كان ذلك من الامور العجيبة حقا .

وهذا من كمال رحمته واحسانه وسعة فضله على عباده سبحانه ، فان المسلم يقاتل فى سبيل الله ويقتله الكافر ، فيكرم الله المسلم بالشهادة ، ثم يمن على ذلك القاتل فيهديه للاسلام والاستشهاد فى سبيله فيدخلان الجنة جميعا .

واما تاويل ضحكه سبحانه بالرضا او القبول او ان الشىء حل عنده بمحل ما يضحك منه ، وليس هناك فى الحقيقة ضحك فهو نفى لما أثبته رسول الله صلى الله عليه وسلم لربه فلا يلتفت اليه .

قوله (عجب ربنا الخ) هذا الحديث يثبت لله عز وجل صفة العجب وفى معناه قوله عليه الصلاة والسلام « عجب ربك من شاب

ليس له صبوة » وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه « بل عجبتُ ويسخرون » بضم التاء على أنها ضمير الرب جل شأنه .

وليس عجبه سبحانه ناشئا عن خفاء في الاسباب أو جهل بحقائق الامور كما هو الحال في عجب المخلوقين بل هو معنى يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته وعند وجود مقتضيه ، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه .

وهذا العجب الذي وصف به الرسول ربه هنا من آثار رحمته وهو من كماله تعالى ، فاذا تأخر الغيث عن العباد مع فقرهم وشدة حاجتهم واستولى عليهم اليأس والقنوط وصار نظرهم قاصرا على الاسباب الظاهرة ، وحسبوا أن لا يكون وراءها فرج من القريب المجيب فيعجب الله منهم .

وهذا محل عجيب حقا اذ كيف يقنطون ورحمته وسعت كل شيء والاسباب لحصولها قد توفرت ، فان حاجة العباد وضرورتهم من اسباب رحمته ، وكذا الدعاء بحصول الغيث والرجاء في الله من أسبابها وقد جرت عادته سبحانه في خلقه أن الفرج مع الكرب وان اليسر مع العسر وان الشدة لا تدوم ، فاذا انضم الى ذلك قوة التجاء وطمع في فضل الله ، وتضرع اليه ودعاء ، فتح الله عليهم من خزائن رحمته ما لا يخطر على البال .

والقنوط مصدر قنط يقنط وهو اليأس من رحمة الله ، قال تعالى (ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون) .

قوله : (وقرب خيره) أى فضله ورحمته وقد روى (غيره) والغير اسم من قولك غير الشيء فتغير ، وفي حديث الاستسقاء « من يكفر بالله يلق الغير » أى تغير الحال وانتقالها من الصلاح الى الفساد .

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلقَى فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ) وَفِي رِوَايَةٍ « عَلَيهَا قَدَمَهُ فَيَنزَوِي بَعضُهَا إِلَى بَعضٍ فَتَقُولُ قَط قَط » مُتفقٌ عَليهِ .

وَقَولُهُ : « يَقُولُ تَعَالَى يَا آدَمُ فَيَقُولُ لَبَّيكَ وَسَعدَيْكَ فَيُنَادَى بِصَوتٍ إِنَّ اللهَ يَأمُرُكَ أَنْ تُخرِجَ مِن ذُرِّيتِكَ بَعثاً إِلَى النَّارِ » مُتفقٌ عَليـــهِ .

وَقَولُهُ « مَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ وَلَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تَرجُمَانٌ » .

قوله (ازلين قنطين) حالان من الضمير المجرور فى اليكم ، وأَزِلِين جميع أَزِل اسم فاعل من الأَزْل بمعنى الشدة والضيق ، يقال أَزِلَ الرجل يَأزَلُ أَزلاً من باب فَرِحَ اى صار فى ضيق وجدب .

قوله (لا تزال جهنم الخ) فى هذا الحديث اثبات الرجل والقدم لله عز وجل ، وهذه الصفة تجرى مجرى بقية الصفات فنثبت لله على الوجه اللائق بعظمته سبحانه . والحكمة فى وضع رجله سبحانه فى النار انه قد وعد ان يملاها كما فى قوله تعالى (لاملأَنَّ جهنـــم من الجنة والناس اجمعين) .

ولما كان مقتضى رحمته وعدله أن لا يعذب احدا بغير ذنب ، وكانت النار فى غاية العمق والسعة ، حقق وعده تعالى فوضع فيهـــا قدمه ، فحينئذ يتلاقى طرفاها ولا يبقى فيها فضل عن اهلها .

واما الجنة فانه يبقى فيها فضل عن اهلها مع كثرة ما اعطاهم واوسع لهم فينشىء الله لها خلقا آخرين كما ثبت بذلك الحديث .

قوله (يقول تعالى يـــا آدم الخ) فى هذين الحديثين اثبات القول والنداء والتكليم لله عز وجل ، وقد سبق ان بينا مذهب اهل السنة والجماعة فى ذلك وانهم يؤمنون بان هذه صفات افعال له سبحانه تابعة لمشيئته وحكمته ، فهو قال ويقول ، ونادى وينادى ، وكلـــم

وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ المَرِيضِ « رَبُّنَا اللهُ الذِي فِي السَّمَاءِ تَقَدَّسَ اسْمُكَ ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا ، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ أَنْزِلْ رَحْمَةً مِن رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِن شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الوَجَعِ فَيَبْرَأ » حَدِيثٌ حَسَنٌ رواه ابو دَاوُد وَغَيْرُه ـ وَقَوْلُهُ « أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ » حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

ويتكلم ، وان قوله ونداءه وتكليمه انما يكون بحروف واصوات يسمعها من يناديه ويكلمه ، وفى هذا رد على الاشاعرة فى قولهم ان كلامه قديم وانه بلا حرف ولا صوت .

وقد دل الحديث الثانى على انه سبحانه سيكلم جميع عباده بلا واسطة ، وهذا تكليم عام ، لانه تكليم محاسبة فهو يشمل المؤمن والكافر والبر والفاجر ، ولا ينافيه قوله تعالى (ولا يكلمهم الله) لان المنفى هنا هو التكليم بما يسر المكلم ، وهو تكليم خاص ويقابله تكليمه سبحانه لاهل الجنة تكليم محبة ورضوان واحسان .

قوله (ربنا الله الذى فى السماء الخ) الحديث الاول صريح فى علوه تعالى وفوقيته فهو كقوله تعالى (أأمنتم من فى السماء) وقد سبق أن قلنا ان هذه النصوص ليس المراد منها ان السماء ظرف حاو له سبحانه ، بل (فى) اما ان تكون بمعنى على كما قاله كثير من اهل العلم واللغة .

و (فى) تكون بمعنى على فى مواضع كثيرة مثل قوله تعالى (لاصلبنكم فى جذوع النخل) واما أن يكون المراد من السماء جهة العلو ، وعلى الوجهين فهى نص فى علوه تعالى على خلقه .

وفى حديث الرقية المذكور توسل الى الله عز وجل بالثناء عليه بربوبيته والاهيته وتقديس اسمه وعلوه على خلقه وعموم امره

وَقَولُهُ « وَالعَرشُ فَوقَ المَاءِ وَاللهُ فَوقَ العَرشِ ، وَهُوَ يَعلَمُ مَا أَنتُم عَلَيهِ » حَدِيثٌ حَسَنٌ رَوَاهُ ابو دَاوُد وَغَيرُه .

وَقَولُهُ لِلجَارِيَةِ « أَينَ اللهُ ؟ قَالَت فِي السَّمَاءِ ، قَالَ مَن أَنَا ؟ قَالَت أَنتَ رَسُولُ اللهِ ، قَالَ اعتِقهَا فَإِنَّهَا مُؤمِنَةٌ » رَوَاهُ مُسلِم .

الشرعي وامره القدري ، ثم توسل اليه برحمته التي شملت اهل سمواته جميعا ان يجعل لاهل الارض نصيبا منها ، ثم توسل اليه بسؤال مغفرة الحوب وهو الذنب العظيم ، ثم الخطايا التي هي دونه ، ثم توسل اليه بربوبيته الخاصة للطيبين من عباده وهم الانبياء واتباعهم التي كان من آثارها أن غمرهم بنعم الدين والدنيا الظاهرة والباطنة .

فهذه الوسائل المتنوعة الى الله لا يكاد يرد دعاء من توسل بها ، ولهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذى هو شفاء الله الذى لا يدع مرضا الا ازاله ولا تعلق فيه لغير الله .

فهل يفقه هذا عباد القبور من المتوسلين بالذوات والاشخاص والحق والجاه والحرمة ونحو ذلك .

واما الحديث الثانى فقد تضمن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم بالايمان للجارية التى اعترفت بعلوه تعالى على خلقه ، فدل ذلك على أن وصف العلو من اعظم اوصاف البارى جل شأنه حيث خصه بالسؤال عنه دون بقية الاوصاف ، ودل ايضا على أن الايمان بعلوه المطلق من كل وجه هو من اعظم أصول الايمان ، فمن انكره فقد حرم الايمان الصحيح .

والعجب من هؤلاء الحمقى من المعطلة النفاة زعمهم انهم أعلم بالله من رسوله ، فينفون عنه الاين بعدما وقع هذا اللفظ بعينه من الرسول مرة سائلا غيره ، كما فى هذا الحديث « ومرة مجيبا

وَقَوْلُهُ « أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَن تَعلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيثُمَا كُنتَ » حَدِيثٌ حَسَن ــ وَقَولَهُ « إِذَا قَامَ أَحَدُكُم إِلَى الصَّلَاةِ فَلَا يَبصُقَنَّ قِبَلَ وَجهِهِ وَلَا عَن يَمِينِهِ ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجهِهِ ، وَلَكِن عَن يَسَارِهِ أَو تَحتَ قَدَمِهِ » مُتفقٌ عَلَيهِ .

لمن سأله بقوله أين كان ربنا » .

وأما قوله (والعرش فوق الماء الخ) ففيه الجمع بين الايمان بعلوه تعالى على عرشه وباحاطة علمه بالموجودات كلها ، فسبحان من هو عال فى دنوه ، قريب فى علوه .

قوله (افضل الايمان ان تعلم الخ) دلالة على ان افضل الايمان هو مقام الاحسان والمراقبة ، وهو ان يعبد العبد ربه كأنه يراه ويشاهده ، ويعلم أن الله معه حيث كان ، فلا يتكلم ولا يفعل ولا يخوض فى امر ما الا والله رقيب مطلع عليه ، قال تعالى (وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه) .

ولا شك ان هذه المعية اذا استحضرها العبد فى كل أحواله فانه يستحي من الله عز وجل ان يراه حيث نهاه أو أن يفتقده حيث أمره فتكون عونا له على اجتناب ما حرم الله والمسارعة الى فعل ما أمر به من الطاعات على وجه الكمال ظاهرا وباطنا ، ولا سيما اذا دخل فى الصلاة التى هى أعظم صلة ومناجاة بين العبد وربه ، فيخشع قلبه ويستحضر عظمة الله وجلاله ، فتقل حركاته ولا يسيء الادب مع ربه بالبصق أمامه او عن يمينه .

قوله (اذا قام احدكم الى الصلاة الخ) دل على ان الله عز وجل يكون قبل وجه المصلى .

قال شيخ الاسلام فى العقيدة الحموية : ان الحديث حق على

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبعِ وَالأَرضِ وَرَبَّ العَرشِ العَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيءٍ ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى ، مُنَزِّلَ التَّورَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالقُرآنِ ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ نَفسِي وَمِن شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، أَنتَ الأَوَّلُ فَلَيسَ قَبلَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ الآخِرُ فَلَيسَ بَعدَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ الظَّاهِرُ فَلَيسَ فَوقَكَ شَيءٌ ، وَأَنتَ البَاطِنُ فَلَيسَ دُونَكَ شَيءٌ ، اقضِ عَنِّي الدَّينَ وَأَغنِنِي مِنَ الفَقرِ » رِوَايَةُ مُسلِم .

قَولُهُ (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ الخ) تَضَمَّنَ الحَدِيثُ إِثبَاتَ أَسمَائِهِ

وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَمَّا رَفَعَ الصَّحَابَةُ أَصوَاتَهُم بِالذِّكرِ : « أَيُّهَا النَّاسُ اربَعُوا عَلَى أَنفُسِكُم فَإِنَّكُم لاَ تَدعُونَ أَصَمَّ ولا غَائِباً . إِنَّمَا تَدعُونَ سَمِيعاً بَصِيراً قَرِيباً ، إِنَّ الذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِن عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

ظاهره وهو سبحانه فوق العرش ، وهو قبل وجه المصلى ، بل هذا الوصف يثبت للمخلوق ، فان الانسان لو انه يناجى السماء او يناجى الشمس والقمر لكانت السماء والشمس والقمر فوقه ، وكانت ايضا قبل وجهه .

قوله (اللهم رب السموات ... الخ) تضمن الحديث اثبات اسمائه تعالى الاول والآخر والظاهر والباطن ، وهى من الاسماء الحسنى ، وقد فسرها النبى صلى الله عليه وسلم بما لا يدع مجالا لقائل ، فهو أعلم الخلق جميعا باسماء ربه وبالمعانى التى تدل عليها ، فلا يصح ان يلتفت الى قول غيره ايا كان .

وفى الحديث ايضا يعلمنا نبينا صلوات الله وسلامه عليه وآله كيف نثنى على ربنا عز وجل قبل السؤال ، فهو يثنى عليه بربوبيته العامة التى انتظمت كل شىء ، ثم بربوبيته الخاصة الممثلة فى انزاله هذه الكتب الثلاثة تحمل الهدى والنور الى عباده ، ثم يعوذ ويعتصم به سبحانه من شر نفسه ومن شر كل ذى شر من خلقه ، ثم

« إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لاَ تُغْلَبُوا عَلَى الصَّلاَةِ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاَةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا فَافْعَلُوا » مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

يسأله فى آخر الحديث ان يقضى عنه دينه وان يغنيه من فقر .

قوله (أيها الناس اربعوا على انفسكم ... الخ) افاد هذا الحديث قربه سبحانه من عباده ، وانه ليس بحاجة الى ان يرفعوا اليه اصواتهم فانه يعلم السر والنجوى ، وهذا القرب المذكور فى الحديث قرب احاطة وعلم وسمع ورؤية فلا ينافى علوه علـى خلقه .

هذا الحديث الصحيح المتواتر يشهد لما دلت عليه الآيات السابقة من رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الجنة وتمتعهم بالنظر الى وجهه الكريم ، وهذه النصوص من الآيات والاحاديث تدل على أمرين : اولهما : علوه تعالى عن خلقه لانها صريحة فى انهم يرونه من فوقهم . ثانيهما : ان أعظم أنواع النعيم هو النظر الى وجه الله الكريم .

وقوله (كما ترون القمر ليلة البدر) المراد تشبيه الرؤية بالرؤية لا تشبيه المرئى بالمرئى ، يعنى أن رؤيتهم لربهم تكون من الظهور والوضوح كرؤية القمر فى اكمل حالاته ، وهى كونه بدرا ولا يحجبه سحاب ، ولهذا قال بعد ذلك (لا تضامون فى رؤيته) روى بتشديد الميم من التضام بمعنى التزاحم والتلاصق ، والتاء يجوز فيهما الضم والفتح ، على أن الاصل تتضامون فحذفت احدى التاءين تخفيفا ، وروى بتخفيف الميم من الضيم بمعنى الظلم ، يعنى لا يلحقكم فى رؤيته ضيم ولا غبن .

وفى حثه صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث على صلاة العصر وصلاة الفجر خاصة اشارة الى ان من حافظ عليهما فى جماعة نال هذا النعيم الكامل الذى يضمحل بازائه كل نعيم ، وهو يدل على تأكد هاتين

« إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ ، فَإِنَّ الفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيرِ تَحرِيفٍ وَلاَ تَعطِيلٍ وَمِن غَيرِ تَكيِيفٍ وَلاَ تَمثِيلٍ ، بَل هُمُ الوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الوَسَطُ فِي الأُمَـــمِ .

الصلاتين كما دل على ذلك الحديث الاخر « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر » متفق عليـــه .

قوله (الى امثال هذه الاحاديث الخ) لما كان ما ذكـــره المؤلف من الاحاديث ليس هو كل ما ورد فى باب الصفات من الاخبار ، نبه على ان امثال هذه الاحاديث التى ذكرها مما يخبر فيه الرســـول صلى الله عليه وسلم عن ربه بما يخبر به ، فان حكمه كذلك وهـــو وجوب الايمان بما يتضمنه من اسماء الله وصفاته ، ثم عاد فأكـــد معتقد اهل السنة والجماعة ، وهو انهم يؤمنون بما وردت بـــه السنة الصحيحة من صفات كايمانهم بما اخبر الله فى كتابه من غيـــر تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

ثم اخبر عن اهل السنة والجماعة بانهم وسط بين الامم السابقة قال تعالى (وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على النـــاس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ومعنى وسطا عدولا خيارا كمـــا ورد الحديث بذلــك .

فهذه الامة وسط بين الامم التى تجنح الى الغلو الضار والامم التى تميل الى التفريط المهلك ، فان من الامم من غلا فى المخلوقين وجعل لهم من صفات الخالق وحقوقه ما جعل ، كالنصـارى الذيـــن غلوا فى المسيح والرهبان . ومنهم من جفا الانبياء واتباعهم حتى قتلهم

« فَهُم وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهلِ التَّعطِيلِ الجَهمِيَّةِ وَأَهلِ التَّمثِيلِ المُشَبِّهَةِ » .

ورد دعوتهم كاليهود الذين قتلوا زكريا ويحي وحاولوا قتل المسيح ورموه بالبهتان ، واما هذه الامة فقد آمنت بكل رسول ارسله الله واعتقدت رسالتهم وعرفت لهم مقاماتهم الرفيعة التي فضلهم الله بها .

ومن الامم ايضا من استحلت كل خبيث وطيب ، ومنها من حرم الطيبات غلوا ومجاوزة . واما هذه الامة فقد احل الله لهـا الطيبات وحرم عليها الخبائث ، الى غير ذلك من الامور التي من الله على هذه الامة الكاملة بالتوسط فيهما .

فكذلك اهل السنة والجماعة متوسطون بين فرق الامة المبتدعة التي انحرفت عن الصراط المستقيم .

قوله (فهم وسط في باب صفات الله الخ) يعني ان اهل السنة والجماعة وسط في باب الصفات بين من ينفيها ويعطل الذات العلية عنها ويحرف ما ورد فيها من الآيات والاحاديث عن معانيها الصحيحة الى ما يعتقده هو من معان بلا دليل صحيح ولا عقل صريح ، كقولهم رحمة الله ارادته الاحسان ، ويده قدرته ، وعينه حفظه ورعايته ، واستواؤه على العرش استيلاؤه ، الى امثال ذلك من انواع النفي والتعطيل التي اوقعهم فيها سوء ظنهم بربهم وتوهمهم أن قيام هذه الصفات به لا يعقل الا على النحو الموجـود في قيامها بالمخلوق .

ولقد احسن القائل حيث يقول :

وَقُصَارَى أَمرِ مَنْ أَوَّ لَ أَن ظَنُّوا الظُّنُونَـا

فَيَقُولُـونَ عَلَى الـرَّحمَـنِ مَـا لَا يَعلَمُونَـا

وانما سمي اهل التعطيل جهمية نسبة الى الجهم بن صفوان

الترمذى راس الفتنة والضلال وقد توسع فى هذا اللفظ حتى اصبح يطلق على كل من نفى شيئا من الاسماء والصفات ، فهو شامل لجميع فرق النفاة من فلاسفة ومعتزلة واشعرية وقرامطة باطنية .

فاهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء الجهمية النفاة وبين اهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثلوه بعباده ، وقد رد الله على الطائفتين بقوله (ليس كمثله شىء) فهذا يرد على المشبهة ، وقوله (وهو السميع البصير) يرد على المعطلة .

واما أهل الحق فهم الذين يثبتون الصفات لله تعالى اثباتا بلا تمثيل ، وينزهونه عن مشابهة المخلوقات تنزيها بلا تعطيل ، فجمعوا احسن ما عند الفريقين ، أعنى التنزيه والاثبات ، وتركوا ما اخطأوا واساءوا فيه من التعطيل والتشبيه .

قوله (وهم وسط الخ) قال الشيخ العلامة محمد بن عبد العزيز ابن مانع فى تعليقه على هذه العبارة ما نصه :

اعلم أن الناس اختلفوا فى افعال العباد هل هى مقدورة للرب ام لا ؟ فقال جهم واتباعه وهم الجبرية : ان ذلك الفعل مقدور للرب لا للعبد وكذلك قال الاشعرى واتباعه ان المؤثر فى المقدور قدرة الرب دون قدرة العبد . وقال جمهور المعتزلة وهم القدرية ، اى نفاة القدر : ان الرب لا يقدر على عين مقدور العبد . واختلفوا هل يقدر على مثل مقدوره ، فاثبته البصريون كابى على وابى هاشم ، ونفاه الكعبى واتباعه البغداديون .

وقال اهل الحق : افعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة وهى مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه منفرد بخلق المخلوقات لا خالق لها سواه ، فالجبرية غلوا فى اثبات القدر فنفوا فعل العبد اصلا .

« وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ »
« وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّـــةِ »

والمعتزلة نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله ولهذا كانوا مجوس هذه الامة . وهدى الله المؤمنين اهل السنة لما اختلفوا فيه مـــن الحق باذنه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، فقالوا العباد فاعلون والله خالقهم وخالق افعالهم كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) وانما نقلنا هذه العبارة بنصها لانها تلخيص جيـــد لمذاهب المتكلمين فى القدر وافعال العباد .

قوله (وفى باب وعيد الله الخ) يعنى ان اهل السنة والجماعة وسط فى باب الوعيد بين المفرطين من المرجئة الذين قالوا لا يضـــر مع الايمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة . وزعموا أن الايمان مجرد التصديق بالقلب وان لم ينطق به . وسموا بذلك نسبة الـــى الارجاء ، اى التأخير لانهم أخروا الاعمال عن الايمان .

ولا شك ان الارجاء بهذا المعنى كفر يخرج صاحبه عن الملة ، فانه لابد فى الايمان من قول باللسان ، واعتقاد بالجنان ، وعمـــل بالاركان ، فاذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنـــا .

واما الارجاء الذى نسب الى بعض الائمة من اهل الكوفـــة كابى حنيفة وغيره ، وهو قولهم ان الاعمال ليست من الايمـــان ، ولكنهم مع ذلك يوافقون اهل السنة علـــى ان الله يعذب من يعذب من اهل الكبائر بالنار ، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها ، وعلى انه لابد فى الايمان من نطق باللسان ، وعلى ان الاعمال المفروضـــة واجبة يستحق تركها الذم والعقاب ، فهذا النوع من الارجاء ليس كفرا وان كان قولا باطلا مبتدعا لاخراجهم الاعمال عن الايمان .

وأما الوعيدية فهم القائلون بأن الله يجب عليه عقلا ان يعذب العاصى كما يجب عليه أن يثيب المطيع ، فمن مات على كبيرة ولم يتب منها لا يجوز عندهم أن يغفر الله له ، ومذهبهم باطل مخالف للكتاب والسنة ، قال تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وقد استفاضت الاحاديث فى خروج عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنـــة .

فمذهب أهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الوعيد من المرجئة وبين موجبيه من القدرية ، فمن مات على كبيرة عندهم فأمـــره مفوض الى الله ان شاء عاقبه وان شاء عفا عنه كما دلت عليه الاية السابقة . واذا عاقبه بها فانه لا يخلد خلود الكفار بل يخرج من النار ويدخل الجنـــة .

قوله (وفى باب أسماء الايمان الخ) كانت مسألة الاسماء والاحكام من أول ما وقع فيه النزاع فى الاسلام بين الطوائف المختلفة وكــان للاحداث السياسية والحروب التى جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما فى ذلك الحين وما ترتب عليها من ظهور الخوارج والرافضة والقدرية اثر كبير فى ذلك النزاع والمراد بالاسماء هنا أسماء الدين مثل مؤمن ومسلم وكافر وفاسق الخ ، والمراد بالاحكام احكــام أصحابها فى الدنيا والاخـــرة .

فالخوارج الحرورية والمعتزلة ذهبوا الى انه لا يستحق اســـم الايمان الا من صدق بجنانه واقـــر بلسانه وقام بجميع الواجبـــات واجتنب جميع الكبائر ، فمرتكب الكبيرة عندهم لا يسمى مؤمنـــــا باتفاق بين الفريقين ، ولكنهم اختلفوا هل يسمى كافرا او لا . فالخوارج يسمونه كافرا ويستحلون دمه وماله ، ولهذا كفروا عليا ومعاوية وأصحابهما واستحلوا منهم ما يستحلون من الكفار .

وأما المعتزلة فقالوا ان مرتكب الكبيرة خرج من الايمان ولم يدخل فى الكفر فهو بمنزلة بين المنزلتين ، وهذا أحد الاصول التى قام عليها مذهب الاعتزال .

واتفق الفريقان ايضا على ان من مات على كبيرة ولم يتب منها فهو مخلد فى النار ، فوقع الاتفاق بينهما فى أمرين :

١ ـ نفى الايمان عن مرتكب الكبيرة .

٢ ـ خلوده فى النار مع الكفار . ووقع الخلاف ايضا فى موضعين أحدهما تسميته كافرا والثانى استحلال دمه وماله وهو الحكم الدنيوى . وأما المرجئة فقد سبق بيان مذهبهم ، وهو انه لا يضر مع الايمان معصية ، فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن كامل الايمان ولا يستحق دخول النـــار .

فمذهب اهل السنة والجماعة وسط بين هذين المذهبين فمرتكب الكبيرة عندهم مؤمن ناقص الايمان ، قد نقص من ايمانه بقدر مـــا ارتكب من معصية فلا ينفون عنه الايمان اصلا كالخوارج والمعتزلة ولا يقولون بأنه كامل الايمان كالمرجئة الجهمية ، وحكمه فى الآخرة عندهم انه قد يعفو الله عز وجل عنه فيدخل الجنة ابتداء أو يعذبه بقدر معصيته ثم يخرجه ويدخله الجنة كما سبق ، وهذا الحكم ايضا وسط بين من يقول بخلوده فى النار وبين من يقول انه لا يستحق على المعصية عقابا .

قوله (وفى أصحاب رسول الله الخ) المعروف أن الرافضة قبحهم الله يسبون الصحابة رضى الله عنهم ويلعنونهم وربما كفروهم أو كفروا بعضهم والغالبية منهم مع سبهم لكثير من الصحابة والخلفاء يغلون فى على وأولاده ويعتقدون فيهم الالهية ، وقد ظهر هؤلاء فى حياة على رضى الله عنه بزعامة عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا وأسلم وأراد أن يكيد

(فَصْــــلٌ)

وَقد دَخَلَ فِيمَا ذَكرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ وَتَوَاتَرَ عَن رَسُولِهِ وَأَجمَعَ عَلَيهِ سَلَفُ الأُمَّةِ مِن أَنَّهُ سُبحَانَهُ فَوقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرشِهِ بَائِنٌ عَلَى خَلقِهِ ، وَهُوَ سُبحَانَهُ مَعَهُم أَينَمَا كَانُوا يَعلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذَلِكَ فِي قَولِهِ :(هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استَوَى عَلَى العَرشِ يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَينَمَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ) .

للاسلام وأهله كما كاد اليهود من قبل للنصرانية وافسدوها على أهلها ، وقد حرقهم علي بالنار لاطفاء فتنتهم ، وروى عنه في ذلك قوله :

لَمَّا رَأَيتُ الأَمرَ أَمراً مُنكَراً أَجَّجتُ نَارِي وَدَعَوتُ قُنبُراً

وأما الخوارج فقد قابلوا هؤلاء الروافض فكفروا عليا ومعاوية ومن معهما من الصحابة وقاتلوهم واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وأما أهل السنة والجماعة فكانوا وسطا بين غلو هؤلاء وتقصير أولئك وهداهم الله الى الاعتراف بفضل أصحاب نبيهم وأنهم أكمل هذه الامة ايمانا واسلاما وعلما وحكمة ، ولكنهم لم يغلوا فيهم ولم يعتقدوا عصمتهم ، بل قاموا بحقوقهم وأحبوهم لعظيم سابقتهم وحسن بلائهم في نصرة الاسلام وجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله (وقد دخل فيما ذكرناه من الايمان الخ) صرح المؤلف هنا بمسألة علو الله تعالى واستوائه على عرشه بائنا من خلقه كما أخبر الله من ذلك في كتابه وكما تواتر الخبر بذلك عن رسوله وكما أجمع عليه سلف الامة الذين هم أكملها علما وايمانا ، مؤكدا بذلك ما سبق أن ذكره في هذا الصدد ومشددا النكير على من أنكر ذلك من الجهمية

وليسَ معنَى قولِهِ « وَهُوَ مَعَكُم » أَنَّهُ مُختلط بِالخَلْقِ فإنَّ هَذا لاَ تُوجِبُهُ اللُّغَةُ ، بَل القَمَرُ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ مِن أصغَرِ مَخلُوقَاتِهِ ، وَهُوَ مَوضُوعٌ فِي السَّمَاءِ ، وَهُوَ مَعَ المُسَافِرِ وغَيرِ المُسَافِرِ أَينَمَا كَانَ .

وَهُوَ سُبحَانَهُ فَوقَ عَرشِهِ رَقِيبٌ عَلَى خَلقِهِ مُهَيمِنٌ عَلَيهِم مُطَّلِعٌ عَلَيهِم إِلَى غَيرِ ذَلِكَ مِن مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ ، وَكُلُّ هَذَا الكَلام الذِي ذَكَرَهُ اللهُ — مِنْ أَنَّهُ فَوقَ العَرشِ وأَنَّهُ مَعَنَا — حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ لاَ يَحتَاجُ إِلَى تَحرِيفٍ ، وَلَكِن يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الكَاذِبَةِ مِثل أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَولِهِ (فِي السَّمَاءِ) أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجمَاعِ أَهلِ العِلمِ وَالإِيمَانِ ، فَإِنَّ اللهَ قَد وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ وَهُوَ يُمسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرضَ أَنْ تَزُولا ، وَيُمسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرضِ إِلاَّ بِإِذنِهِ ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرضُ بِأَمرِهِ .

والمعتزلة ومن تبعهم من الاشاعرة . ثم بين ان استواءه على عرشه لا ينافى معيته وقربه من خلقه ، فان المعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية ، وضرب لذلك مثلا بالقمر الذى هو موضوع فى السماء وهو مع المسافر وغيره اينما كان بظهوره واتصال نوره فاذا جاز هذا بالنسبة للقمر وهو من اصغر مخلوقات الله افلا يجوز بالنسبة الى اللطيف الخبير الذى احاط بعباده علما وقدرة والذى هو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم ، بل العالم كله سمواته وارضه من العرش الى الفرش كله بين يديه سبحانه كانه بندقة فى يد احدنا ، افلا يجوز لمن هذا شأنه ان يقال انه مع خلقه مع كونه عاليا عليهم بائنا منهم فوق عرشه ؟ بلى يجب الايمان بكل من علوه تعالى ومعيته ، واعتقاد ان ذلك كله حق على حقيقته من غير ان يساء فهم ذلك او يحمل على معان فاسدة كأن يفهم من قوله (وهو معكم) معية الاختلاط والامتزاج كما يزعمه الحلولية ، او يفهم من قوله (فى السماء) ان السماء ظرف حاو له محيطة به . كيف

(فَصْــــلٌ)

وَقد دَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ كَمَا جَمَعَ بَينَ ذلِـكَ فِي قَولِهِ (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ) الآية ـــ وَقَولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « إِنَّ الذي تَدعُونَهُ أَقرَبُ إِلَى أَحَدِكُم مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ » وَمَا ذُكِرَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِن قُربِهِ وَمَعِيَّتِهِ ، لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوقِيَّتِهِ فَإِنَّهُ سُبحَانَهُ لَيسَ كَمِثلِهِ شَيءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ ، وَهُوَ عَالٍ فِي دُنُوِّهِ قَرِيبٌ فِي عُلُـوِّهِ .

وَمِنَّ الإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيرَ مَخلُوقٍ، مِنهُ بَدَأَ وَإِلَيهِ يَعُودُ ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً ، وَأَنَّ هَذَا القُرآنَ الذِي أَنزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً لَا كَلَامُ غَيرِهِ

وقد وسع كرسيه السموات والارض جميعا ؟ وهو الذى يمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ، فسبحان من لا يبلغه وهم الواهمين ولا تدركه أفهام العالمين .

قوله (وقد دخل فى ذلك الايمان الخ) يجب الايمان بما وصف الله به نفسه من أنه قريب مجيب ، فهو سبحانه قريب ممن يدعوه ويناجيه ، يسمع دعاءه ونجواه ويجيب دعاءه متى شاء وكيف شاء فهو تعالى قريب قرب العلم والاحاطة كما قال تعالى (ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبـل الوريـد) .

وبهذا يتبين أنه لا منافاة أصلا بين ما ذكر فى الكتاب والسنـة من قربه تعالى ومعيته وبين ما فيهما من علوه تعالى وفوقيته ، فهذه كلها نعوت له على ما يليق به سبحانه ليس كمثله شىء فى شىء منها .

قوله (ومن الايمان بالله وكتبه الخ) جعل المصنف الايمـان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الايمان بالله لانه صفة من صفاته ،

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ القَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ أَوْ عِبَارَةٌ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي المَصَاحِفِ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً ، فَإِنَّ الكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئاً لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغاً مُؤَدِّياً ، وَهُوَ كَلَامُ اللهِ حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ ، لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الحُرُوفَ دُونَ المَعَانِي وَلَا المَعَانِي دُونَ الحُرُوفِ !

فلا يتم الايمان به سبحانه الا بها ، اذ الكلام لا يكون الا صفة للمتكلم والله سبحانه موصوف بأنه متكلم بما شاء متى شاء ، وانه لم يزل ولا يزال يتكلم بمعنى أن نوع كلامه قديم وان كانت آحاده لا تزال تقع شيئا بعد شيء بحسب حكمته .

وقد قلنا فيما سبق أن الاضافة فى قولنا « القرآن كلام الله » هى من اضافة الصفة للموصوف فتفيد أن القرآن صفة الرب سبحانه وانه تكلم به حقيقة بألفاظه ومعانيه بصوت نفسه فمن زعم أن القرآن مخلوق من المعتزلة فقد أعظم الفرية على الله ونفى كلام الله عن الله وصفا وجعله وصفا لمخلوق وكان أيضا متجنيا على اللغة فليس فيها متكلم بمعنى خالق للكلام . ومن زعم أن القرآن الموجود بيننا حكاية عن كلام الله كما تقوله الكلابية أو أنه عبارة عنه كما تقوله الاشعرية ، فقد قال بنصف قول المعتزلة حيث فرق بين الالفاظ والمعانى ، فجعل الالفاظ مخلوقة والمعانى عبارة عن الصفة القديمة ، كما أنه ضاهى النصارى فى قولهم بحلول اللاهوت وهو الكلمة فى الناسوت وهو جسد عيسى عليه السلام ، اذ قال بحلول المعانى التى هى الصفة القديمة فى هذه الالفاظ المخلوقة ، فجعل الالفاظ ناسوتا لها .

والقرآن كلام الله حيث تصرف ، فمهما كتبناه فى المصاحف أو تلوناه بالالسنة لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله ، لان الكلام كما قال المصنف انما يضاف الى من قاله مبتدئا لا الى من قاله مبلغا

وَقد دَخَلَ أَيضاً فِيمَا ذَكرنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ ، الإِيمَانُ بِأَنَّ المُؤمِنِين يَرَونَهُ يَومَ القِيَامَةِ عِياناً بِأَبصَارِهِمْ كَمَا يَرَونَ الشَّمسَ صَحْواً لَيسَ بِهَا سَحَابٌ ، وَكَمَا يَرَونَ القَمَرَ لِيلَةَ البَدرِ لاَ يُضَامُونَ فِي رُؤيَتِهِ ، يَرَونَهُ سُبحَانَهُ وَهُم فِي عَرَصَاتِ القِيَامَةِ ، ثُمَّ يَرونَهُ بَعدَ دُخُولِ الجَنَّةِ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى .

مـــؤديـــــا .

واما معنى قول السلف (منه بدا واليه يعود) فهو من البدء يعنى ان الله هو الذى تكلم به ابتداء لم يبتدأ من غيـــره ، ويحتمـــل ان يكون من البدء بمعنى الظهور ، يعنى انه هو الذى تكلم به وظهر منه لم يظهر من غيره ، ومعنى اليه يعود اى يرجع اليه وصفـــا ، لانه وصفه القائم به ، وقيل معناه يعود اليه فى آخر الزمان حين يرفع من المصاحف والصدور ، كما ورد فى اشراط الساعة .

واما كون الايمان بأن القرآن كلام الله داخلا فى الايمان بالكتب فان الايمان بها ايمانا صحيحا يقتضى ايمان العبد بان الله تكلم بها بالفاظهـــا ومعانيها ، وانها جميعا كلامه هو لا كلام غيره ، فهـــو الذى تكلم بالتوراة بالعبرانية ، وبالانجيل بالسريانية ، وبالقرآن بلسان عـــربـــى مبيـــن .

قوله (وقد دخل ايضا فيما ذكرناه الخ) تقدم الكلام على رؤية المؤمنين لربهم عز وجل فى الجنة كما دلت على ذلك الايات والاحاديث الصريحة ، فلا حاجة بنا الى اعادة الكلام فيها .

غير أن قوله يرونه سبحانه وهم فى عرصات القيامة قد يوهم ان هذه الرؤية ايضا خاصة بالمؤمنين ولكن الحق انها عامة لجميـــع

(فَصْــــلٌ)

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَومِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعدَ المَوتِ فَيُؤمِنُونَ بِفِتنَةِ القَبرِ وَبِعَذَابِ القَبرِ وَنَعِيمِهِ . فَأَمَّا الفِتنَةُ فَإِنَّ النَّاسَ يُمتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِم ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : مَن رَبُّكَ وما دِينُكَ ومن نَبِيُّكَ ؟ فَيُثَبِّتُ اللهُ الذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ ، فَيَقُولُ المُؤمِنُ رَبِّي اللهُ،وَالإِسلامُ دِينِي وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ نَبِيِّي . وَأَمَّا المُرتَابُ فَيَقُولُ هَاه هَاه لَا أَدرِي سَمِعتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيئـاً فَقُلتُهُ ، فَيُضرَبُ بِمِرزَبَةٍ مِنْ حَدِيـدٍ فَيَصِيحُ صَيحَةً يَسمَعُهَا كُلُّ شَيءٍ إِلاَّ الإِنسَان ، وَلَو سَمِعَهَا الإِنسَـانُ لَصَعِقَ ــ ثُمَّ بَعدَ هَذِهِ الفِتنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ إِلَى أَن تَقُـومَ القِيَامَةُ الكُبرَى فَتُعَادُ الأَروَاحُ إِلَى الأَجسَادِ .

اهل الموقف حين يجيء الرب لفصل القضاء بينهم كما يدل عليه قوله تعالى « هل ينظرون الا ان ياتيهم الله فى ظلل من الغمام » الآية .

والعرصات جمع عرصة وهى كل موضع واسع لا بناء فيه .

قوله (ومن الايمان باليوم الاخر الخ) اذا كان الايمان باليـوم الاخر احد الاركان الستة التى يقوم عليها الايمان فان الايمان بـه ايمانا تاما كاملا لا يتحقق الا اذا آمن العبد بكل ما اخبر به النبـى صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب التى تكون بعد الموت والضابط فى ذلك انها أمور محكمة اخبر بها الصادق صلوات الله عليه وسلامه وآله وكل ممكن اخبر به الصادق يجب الايمان بوقوعه كما اخبر ، فـان هذه الامور لا تستفاد الا من خبر الرسول ـــ فاهل السنة والجماعـة يؤمنون بذلك كلـه .

واما اهل المروق والالحاد من الفلاسفة والمعتزلة فينكرون هذه الامور من سؤال القبر ومن نعيم القبر وعذابه والصراط والميـزان

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِن قُبُورِهِم لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً وَتَدنُو مِنهُم الشَّمسُ وَيُلجِمُهُم الْعَرَقُ ، فَتُنصَبُ الْمَوَازِينُ فَتُوزَنُ بِهَا أَعمَالُ الْعِبَادِ .

وغير ذلك بدعوى أنها لم تثبت بالعقل ، والعقل عندهم هو الحاكم الاول الذى لا يجوز الايمان بشىء الا عن طريقه ، وهم يردون الاحاديث الواردة فى هذه الامور بدعوى أنها أحاديث آحاد لا تقبل فى بـاب الاعتقاد وأما الآيات فيأولونها مما يصرفها عن معانيها . والاضافـة فى قوله (بفتنة القبر) على معنى (فى) أى بالفتنة التى تكون فى القبـر وأصل الفتنة وضع الذهب ونحوه على النار لتخليصه من الاوضار والعناصر الغريبة ، ثم استعملت فى الاخبار والامتحان . وأما عذاب القبر ونعيمه فيدل عليه قوله تعالى فى حق آل فرعون (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا) وقوله سبحانه عن قوم نوح (مما خطيئاتهم اغرقوا فادخلوا نـارا) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « القبر اما روضة من ريـاض الجنة أو حفرة من حفر النـار » .

والمِرْزَبَة بالتخفيف المطرقة الكبيرة ، ويقال لها ايضا إرزبّـة بالهمـزة والتشديـد .

قوله (وتقوم القيامة الخ) يعنى القيامة الكبرى وهذا الوصف للتخصص احترز به عن القيامة الصغرى التى تكون عند الموت كمـا فى الخبر « من مات فقد قامت قيامته » وذلك أن الله عز وجل اذا أذن بانقضاء هذه الدنيا أمر اسرافيل عليه السلام أن ينفخ فى الصور النفخة الاولى فيصعق كل من فى السموات ومن فى الارض الا مـن شاء الله ، وتصبح الارض صعيدا جرزا ، والجبال كثيبا مهيلا ،

فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . وَتُنشَرُ الدَّوَاوِينُ ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ ـ فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِن وَرَاءِ ظَهْرِهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً) .

ويحدث كل ما اخبر الله به فى كتابه لاسيما فى سورتى التكوير والانفطار ، وهذا هو آخر ايام الدنيا ، ثم يأمر الله السماء فتمطر مطرا كمنى الرجال اربعين يوما فينبت منه الناس فى قبورهم من عجب اذنابهم وكل ابن آدم يبلى الا عجب الذنب حتى اذا تم خلقهم وتركيبهم امر الله اسرافيل بان ينفخ فى الصور النفخة الثانية فيقوم الناس من الاجداث احياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ (يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا) ويقول المؤمنون (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) (١) ثم تحشرهم الملائكة الى الموقف حفاة غير منتعلين عراة غير مكتسين غرلا غير مختتنين جمع اغرل وهو الاقلف ، والغرلة القلفة ، وأول من يكتسى يوم القيامة ابراهيم كما فى الحديث . وهناك فى الموقف تدنو الشمس من رؤوس الخلائق ويلجمهم العرق ، فمنهم من يبلغ كعبيه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ ثدييه ومنهم من يبلغ ترقوته كل على قدر عمله ، ويكون اناس فى ظل الله عز وجل ، فاذا اشتد بهم الامر وعظم الكرب استشفعوا الى الله عز وجل بالرسل والانبياء أن ينقذهم مما هم فيه ، وكل رسول يحيلهم على من بعده حتى يأتوا نبينا صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها ويشفع فيهم فينصرفون الى فصل القضاء وهناك تنصب الموازين فتوزن بها اعمال العباد وهى

---

(١) ويؤيد ذلك قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والايمان » الآية.

وَيُحَاسِبُ اللّٰهُ الخَلَائِقَ وَيَخلُو بِعَبدِهِ المُؤمِنِ فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ ، كَمَا

موازين حقيقية كل ميزان منها له لسان وكفتان ويقلب الله اعمال العباد (وهي اعراض) اجساما لها ثقل فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة كما قال تعالى (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين) .

ثم تنشر الدواوين وهي صحائف الاعمال فاما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب الى أهله مسرورا ، واما من أوتي كتابه بشماله او من وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ويقول يا ليتني لم أوت كتابيه ولم ادر ما حسابيه . قال تعالى (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا) .

واما قوله تعالى (وكل انسان الزمناه طائره في عنقه) فقد قال الراغب اي عمله الذي طار عنه من خير وشر ولكن الظاهر ان المراد بالطائر هنا نصيبه في هذه الدنيا وما كتب له فيها من رزق وعمل كما في قوله تعالى (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) يعني ما كتب عليهم فيه .

قوله (ويحاسب الله الخلائق الخ) المراد بتلك المحاسبة تذكيرهم وانباؤهم بما قدموه من خير وشر احصاه الله ونسوه قال تعالى : ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون . وفي الحديث الصحيح « من نوقش الحساب عذب » فقالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله أو ليس الله يقول (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ فقال : انما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك .

واما قوله (ويخلو بعبده المؤمن) فقد ورد عن ابن عمر رضي

وَصفَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَمَّا الكُفَّارُ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَن تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتِ لَهُمْ وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعمَالُهُمْ فَتُحصَى فَيُوقَفُونَ عَلَيهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا .

وَفِي عَرصَاتِ القِيَامَةِ الحَوْضُ المَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ وَأَحلَى مِنَ العَسَلِ ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجومِ السَّمَاءِ طُولُه شَهرٌ وَعَرضُهُ شَهرٌ ، مَن يَشرَبُ مِنهُ شَربَةً لَا يَظمَأُ بَعدَهَا أَبَداً .

الله عنهما ان الله عز وجل يدنى منه عبده المؤمن فيضع عليه كنفه ويحاسبه فيما بينه وبينه ويقرره بذنوبه ، فيقول : الم تفعل كذا يوم كذا ، الم تفعل كذا يوم كذا حتى اذا قرره بذنوبه وأيقن انه قد هلك قال له : سترتها عليك فى الدنيا وانا اغفرها لك اليوم .

واما قوله (فانه لا حسنات لهم) يعنى الكفار لقوله تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقوله (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء) والصحيح اعمال الخير التى يعملها الكافر يجازى بها فى الدنيا فقط حتى اذا جاء يوم القيامة وجد صحيفة حسناته بيضاء وقيل يخفف بها عنه من عذاب غير الكفر .

واما قوله (فى عرصات القيامة) فان الاحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا فمن انكره فاخلق به ان يحال بينه وبين وروده يوم العطش الاكبر وقد ورد فى احاديث : ان لكل نبى حوضا ولكن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم اعظمها واحلاها واكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

وَالصِّرَاطُ مَنصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّم وَهُوَ الجِسرُ الذي بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ يَمُرُّ النَّاسُ عَلَى قَدرِ أعمَالِهِم فَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَلَمحِ البَصَرِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالبَرقِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ ، وَمِنهُم مَن يَمُرُّ كَالفَرَسِ الجَوَادِ ، وَمِنهُم مَنْ يَمُرُّ كَرِكَابِ الإبِلِ ، وَمِنهُم مَن يَعدُو عَدْواً ، وَمِنهُمْ مَن يَمشِي مَشياً ، وَمِنهُم مَن يَزحَفُ زَحفاً وَمِنهُم مَن يُخطَفُ خَطفاً وَيُلقَى فِي جَهَنَّمَ فَإنَّ الجِسرَ عَلَيهِ كَلَالِيبُ تَخطَفُ النَّاسَ بِأعمَالِهِم فَمَن مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ دَخَلَ الجَنَّةَ ، فَإذَا عَبَرُوا عَلَيهِ وَقَفُوا عَلَى قَنطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ ، فَيُقتَصُّ لِبَعضِهِم مِن بَعضٍ ، فَإذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُم فِي دُخُولِ الجَنَّةِ .

وَأَوَّلُ مَن يَستَفتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وَأَوَّلُ مَن يَدخُلَ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ ، وَلَه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي القِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ : أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى فَيَشفَعُ فِي أَهلِ المَوقِفِ حَتَّى يُقضَى بَينَهُمْ بَعدَ أَن يَتَرَاجَعَ الأَنبِيَاءُ ، آدَمُ وَنُوحٌ وَإبرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى ابنُ مَريَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنتَهِيَ إِلَيهِ .

قوله (والصراط منصوب الخ) أصل الصراط الطريق الواسع قيل سمى بذلك لانه يسترط السابلة ، اى يبتلعهم اذا سلكوه ، وقد يستعمل فى الطريق المعنوى كما فى قوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) .

والصراط الاخروى الذى هو الجسر الممدود على ظهر جهنم بين الجنة والنار حق لا ريب فيه لورود خبر الصادق به ومن استقام على صراط الله الذى هو دينه الحق فى الدنيا استقام على هذا الصراط فى الاخرة وقد ورد فى وصفه انه أرق من الشعرة وأحد من السيف .

قوله (واول من يستفتح باب الجنة محمد صلى الله عليه وسلم) يعنى أول من يحرك حلقها طالبا ان يفتح له بابها كما قال عليه السلام

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّـةَ ، وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَـهُ .

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ فَيَشْفَعُ فِيمَن اسْتَحَقَّ النَّارَ ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِم ، فَيَشْفَعُ فِيمَن اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لا يَدْخُلَهَا ، وَيَشْفَعُ فِيمَن دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا .

« انا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وانا اول من تنشق عنه الارض ولا فخر ، وانا اول من يحرك حلق الجنة فادخلها ويدخلها معى فقراء امتى » يعنى بعد دخول الرسل والانبياء عليهم الصلاة والسلام يكون فقراء هذه الامة اول الناس دخولا الجنة .

واما قوله (وله صلى الله عليه وسلم فى القيامة ثلاث شفاعات) فاصل الشفاعة من قولنا : شفع كذا بكذا اذا ضمه اليه ، وسمى الشافع شافعا لانه يضم طلبه ورجاءه الى طلب المشفوع له .

والشفاعة من الامور التى ثبتت بالكتاب والسنة ، واحاديثها متواترة قال تعالى (من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه) فنفى الشفاعة بلا اذن اثباتت للشفاعة من بعد الاذن قال تعالى عن الملائكة (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان ياذن الله لمن يشاء ويرضى) فبين الله الشفاعة الصحيحة وهى التى تكون باذنه ولمن يرتضى قوله وعملـه .

واما ما يتمسك به الخوارج والمعتزلة فى نفى الشفاعة من مثل قوله تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) (ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة — فمالنا من شافعين الخ) . فان الشفاعة المنفية هنا هى الشفاعة فى اهل الشرك . وكذلك الشفاعة الشركية التى يثبتها المشركون لاصنامهم ويثبتها النصارى للمسيح والرهبان ، وهى التى تكون بغير اذن الله ورضاه .

واما قوله (اما الشفاعة الاولى فيشفع فى اهل الموقف حتـى

وَيُخرِجُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ أَقوَاماً بِغَيرِ شَفَاعَةٍ بَل بِفَضلِهِ وَرَحمَتِهِ ، وَيَبقَى فِي الجَنَّةِ فَضلٌ عَمَّن دَخَلَهَا مِن أَهلِ الدُّنيَا ، فَيُنشِىءُ اللَّهُ لَهَا أَقوَامـاً فَيُدخِلُهُم الجَنَّـةَ .

وَأَصنَافُ مَا تَضَمَّنَتهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِن الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ

يقضى بينهم) فهذه هى الشفاعة العظمى وهى المقام المحمود الذى يغبطه به النبيون والذى وعده الله ان يبعثه اياه بقوله (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) يعنى يحمده عليه اهل الموقف جميعا وقد أمرنـا نبينا صلى الله عليه وسلم اذا سمعنا النداء أن نقول بعد الصلاة عليه « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلـة الفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته . وأما قوله (وأما الشفاعة الثانية فيشفع فى أهل الجنة أن يدخلوا الجنة) يعنى أنهم وقد استحقوا دخول الجنة لا يؤذن لهم بدخولها الا بعد شفاعة .

وأما قوله (وهاتان الشفاعتان خاصتان له) يعنى الشفاعة فى أهل الموقف والشفاعة فى أهل الجنة أن يدخلوها ، وتنضم اليهما ثالثة وهى شفاعته فى تخفيف العذاب عن بعض المشركين كما فى شفاعته لعمه أبى طالب فيكون فى ضحضاح من نار . كما ورد بذلك الحديث

وأما قوله (وأما الشفاعة الثالثة فيشفع فى من استحق النار) وهذه هى الشفاعة التى ينكرها الخوارج والمعتزلة ، فان مذهبهم أن من استحق النار لابد أن يدخلها ومن دخلها لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها والاحاديث المستفيضة المتواترة ترد على زعمهم وتبطله .

وأما قوله (واصناف ما تضمنته الدار الآخرة من الحساب الخ) فاعلم ان أصل الجزاء على الاعمال خيرها وشرها ثابت بالعقل كما هو ثابت بالسمع ، وقد نبه الله العقول الى ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه مثل قوله تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثـا وأنكم الينـا لا

وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ وَالآثَارِ مِنَ العِلمِ المَأثُورِ عَنِ الأَنبِيَاءِ . وَفِي العِلمِ المَورُوثِ عَن مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مِن ذَلِكَ مَا يَشفِي وَيَكفِي فَمَن ابتَغَاهُ وَجَدَهُ .

« وَتُؤمِنُ الفِرقَةُ النَّاجِيةُ مِن أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ بِالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ.وَالإِيمَانُ بِالقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيئَينِ .

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِالخَلقِ وَهُم عَامِلُونَ بِعِلمِهِ القَدِيمِ الذِي هُوَ مَوصُوفٌ بِهِ أَزَلاً وَأَبَداً وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحوَالِهِمْ مِنَ الطَاعَاتِ وَالمَعَاصِي وَالأَرزَاقِ وَالآجَالِ ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوحِ المَحفُوظِ مَقَادِيرَ الخَلقِ فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ قَالَ لَهُ اكتُبْ قَالَ مَا أَكتُبُ ؟ قَالَ

ترجعون) (ايحسب الانسان ان يترك سدى) فانه لا يليق فى حكمة الحكيم ان يترك الناس سدى مهملين ، لا يؤمرون ولا ينهون ، ولا يثابون ولا يعاقبون ، كما لا يليق بعدله وحكمته ان يسوى بين المؤمن والكافر والبر والفاجر كما قال تعالى (ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار) فان العقول الصحيحة تابى ذلك وتنكره اشد الانكار .

وكذلك نبههم الله على ذلك بما وقعه من ايامه فى الدنيا من اكرام الطائعين ، وخذلان الطاغين ، واما تفاصيل الاجزية ومقاديرها فلا يدرك الا بالسمع ، والنقول الصحيحة من المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله .

والايمان بالقدر خيره وشره من الله تبارك وتعالى احد الاركان الستة التى يدور عليها فلك الايمان كما دل عليه حديث جبريل وغيره وكما دلت عليه الآيات الصريحة من كتاب الله عز وجل .

اكتُب مَا هُوَ كَائنٌ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ . فَمَا أَصَابَ الإِنسَانَ لَم يَكُن لِيُخطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَم يَكُن لِيُصِيبَهُ.جَفَّتِ الأَقلاَمُ وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ كَمَـا قَـالَ تَعالَى (ألم تَعلَمْ أَنَّ اللهَ يَعلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأرضِ، إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) وَقَالَ (مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الأَرضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُم إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِن قَبلِ أَن نَبرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ) وَهَذا التَّقدِيرُ التَّابِعُ لِعِلمِهِ سُبحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُملَةً وَتَفصِيلاً فَقَد كَتَبَ فِي اللَّوحِ المحفُوظِ مَا شَاءَ ، وَإِذا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فِيهِ بَعَثَ إِلَيهِ مَلَكاً فَيُؤمَر بِأَربَعِ كَلِمَاتٍ فَيُقَالُ لَهُ اكتُبْ

وقد ذكر المؤلف هنا ان الايمان بالقدر على درجتين وان كلا منهما تتضمن شيئين ، فالدرجة الاولى تتضمن اولا الايمان بعلمه القديم المحيط بجميع الاشياء وانه تعالى علم بهذا العلم القديم الموصوف به ازلا وابدا كل ما سيعمله الخلق فيما لا يزال وعلم به جميع احوالهم من الطاعات والمعاصي والارزاق والآجال . فكل ما يوجد من أعيان واوصاف ويقع من افعال واحداث فهو مطابق لما علمه الله عز وجل ازلا

ثانيا ان الله كتب ذلك كله وسجله في اللوح المحفوظ ، فما علم الله كونه ووقوعه من مقادير الخلائق واصناف الموجودات وما يتبع ذلك من الاحوال والاوصاف والافعال ودقيق الامور وجليلها قد امر القلم بكتابته كما قال صلى الله عليه وسلم قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين الف سنة وكان عرشه على الماء ، وكما قال في الحديث الذي ذكره المؤلف ان اول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال وما اكتب قال اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة .

واول هنا بالنصب على الظرفية والعامل فيه قال اي له ذلك اول ما خلقه وقد روى بالرفع على انه مبتدأ خبره القلم ولهذا اختلف العلماء في العرش والقلم ايهما خلق اولا . وحكى العلامة ابن القيم في ذلك قولين واختار ان العرش مخلوق قبل القلم ، قال في النونية :

رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَم سَعِيدٌ وَنَحو ذَلِكَ، فَهَذَا التَّقدِيرُ قَدْ كَانَ يُنكِرُهُ غُلَاةُ القَدَرِيَّةِ قَدِيماً وَمُنكِرُوه اليَومَ قَلِيل».

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ : فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ وَقُدْرَتُه الشَّامِلَةُ وَهُوَ الإِيمَانُ بِأَنْ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ ، وَمَا لَم يَشَأ لَم يَكُن ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبحَانَهُ لَا يَكُونُ فِي مُلكِهِ مَا لَا يُرِيدُ . وَأَنَّهُ سُبحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ المَوجُودَاتِ وَالمَعدُومَاتِ ، فَمَا مِن مَخلُوقٍ فِي الأَرضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبحَانَهُ لَا خَالِقَ غَيرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَد

وَالنَّاسُ مُختَلِفُونَ فِي القَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ القَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبلَ العَرشِ أَو هُوَ بَعدَهُ ... قَولَانِ عِندَ أَبِي العَلَا الهَمَدَانِي
وَالحَقُّ أَنَّ العَرشَ قَبلُ لِأَنَّهُ ... وَقتَ الكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَركَانِ
وَكِتَابَةُ القَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيرِ فَصْلِ زَمَانِ

واذا كان القلم قد جرى بكل ما هو كائن الى يوم القيامة فكل ما يقع من كائنات واحداث فهو مطابق لما كتب فيه ، فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه كما جاء في حديث ابن عباس رضى الله عنهما وغيره .

وهذا التقدير التابع للعلم القديم تارة يكون جملة كما في اللوح المحفوظ فان فيه مقادير كل شيء ، ويكون في مواضع تفصيلا يخص كل فرد كما في الكلمات الاربع التى يؤمر الملك بكتابتها عند نفخ الروح في الجنين يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد فهذا تقدير خاص وهذا التقدير السابق على وجود الاشياء قد كان ينكره غلاة القدرية قديما مثل معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وكانوا يقولون أن الامر انف . ومنكر هذه الدرجة من القدر كافر لانه انكر معلوما من الدين بالضرورة قد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع .

أَمَرَ العِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُم عَن مَعصِيَتِهِ . وَهُوَ سُبحَانَهُ يُحِبُّ المُتَّقِينَ وَالمحسِنِينَ وَالمقسِطِينَ وَيَرضَى عَن الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ وَلاَ يَرضَى عَنِ القَومِ الفَاسِقِين ، وَلاَ يَامُرُ بِالفَحشَاءِ وَلاَ يَرضَى لِعِبَادِهِ الكُفرَ وَلاَ يُحِبُّ الفَسَادَ .

قوله : (واما الدرجة الثانية من القدر ... الخ) فهى تتضمن شيئين ايضا اولهما الايمان بعموم مشيئته تعالى وان ما شاء كان وما لم يشا لم يكن وانه لا يقع فى ملكه ما لا يريد وان افعال العباد من الطاعات والمعاصى واقعة بتلك المشيئة العامة التى لا يخرج عنها كائن سواء كان مما يحبه الله ويرضاه أم لا ، وثانيهما الايمان بان جميع الاشياء واقعة بقدرة الله تعالى وانها مخلوقة له لا خالق لها سواه ، لا فرق فى ذلك بين افعال العباد وغيرها ، كما قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) .

ويجب الايمان بالامر الشرعى ، وان الله تعالى كلف العباد فامرهم بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ولا منافاة اصلا بين ما ثبت من عموم مشيئته سبحانه لجميع الاشياء وبين تكليفه العباد بما شاء من امر ونهى ، فان تلك المشيئة لا تناف حرية العبد واختياره للفعل ولهذا جمع الله بين المشيئتين بقوله (لمن شاء منكم ان يستقيم ، وما تشاؤون الا ان يشاء الله رب العالمين) .

كما انه لا تلازم بين تلك المشيئة وبين الامر الشرعى المتعلق بما يحبه الله ويرضاه ، فقد يشاء الله ما لا يحبه ويحب ما لا يشاء كونه (فالاول) كمشيئته وجود ابليس وجنوده (والثانى) كمحبة ايمان الكفار وطاعات الفجار وعدل الظالمين وتوبة الفاسقين ولو شاء ذلك لوجد كله ، فانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

وكذلك لا منافاة بين عموم خلقه تعالى لجميع الاشياء وبين كون العبد فاعلا لفعله ، فالعبد هو الذى يوصف بفعله فهو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، والله خالقه وخالق فعله لانه هو الذى خلق فيه القدرة والارادة اللتين بهما يفعل .

يقول العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدى غفر الله له واجزل مثوبته :

ان العبد اذا صلى وصام وفعل الخير او عمل شيئا من المعاصى كان هو الفاعل لذلك العمل الصالح ، وذلك العمل السيء . وفعله المذكور بلا ريب قد وقع باختياره وهو يحس ضرورة انه غير مجبور على الفعل او الترك وانه لو شاء لم يفعل وكان هذا هو الواقع فهو الذى نص الله عليه فى كتابه ونص عليه رسوله حيث اضاف الاعمال صالحها وسيئها الى العباد واخبر انهم الفاعلون لها وانهم ممدوحون عليها ان كانت صالحة ومثابون ، وملومون عليها ان كانت سيئة ومعاقبون عليها .

فقد تبين واتضح بلا ريب انها واقعة منهم باختيارهم وانهم اذا شاءوا فعلوا واذا شاءوا تركوا ، وان هذا الامر ثابت عقلا وحسا وشرعا ومشاهدة .

ومع ذلك اذا اردت ان تعرف انها وان كانت كذلك واقعة منهم كيف تكون داخلة فى القدر وكيف تشملها المشيئة ؟ فيقال بأى شيء وقعت هذه الاعمال الصادرة من العباد خيرها وشرها ؟ فيقال بقدرتهم وارادتهم ، هذا يعترف به كل أحد ، فيقال : ومن خلق قدرتهم وارادتهم ومشيئتهم ؟ فالجواب الذى يعترف به كل احد ان الله هو

وَالكَافِرُ وَالبَرُّ وَالفَاجِرُ وَالمُصَلِّي وَالصَّائِمُ وَلِلعِبَادِ قُدرَةٌ عَلَى أعمَالِهِم وَلَهُم إرَادَةٌ وَاللهُ خَالِقُهُم وَقُدرَتِهِم وَإرَادَتِهِم كَمَا قَالَ تَعَالَى (لِمَن شَاءَ مِنكُم أن يَستَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إلاَّ أن يَشَاءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ)

الذى خلق قدرتهم وارادتهم ، والذى خلق ما به تقع الافعال هو الخالق للافعال فهذا هو الذى يحل الاشكال ويمكن العبد أن يعقل بقلبه اجتماع القدر والقضاء والاختيار ، ومع ذلك فهو تعالى أمد المؤمنين بأسباب والطاف واعانات متنوعة وصرف عنهم الموانع كما قال صلى الله عليه وسلم (أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة) وكذلك خذل الفاسقين ووكلهم الى أنفسهم لانهم لم يؤمنوا به ولم يتوكلوا عليه فولاهم ما تولوا لانفسهم . اهـ)

وخلاصة مذهب اهل السنة والجماعة فى القدر وافعال العباد ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من أن الله سبحانه هو الخالق لكل شيء من الاعيان والاوصاف والافعال وغيرها وان مشيئته تعالى عامة شاملة لجميع الكائنات فلا يقع منها شيء الا بتلك المشيئة وان خلقه سبحانه الاشياء بمشيئته انما يكون وفقا لما علمه منها بعلمه القديم ، ولما كتبه وقدره فى اللوح المحفوظ وان للعباد قدرة وارادة تقع بها افعالهم وانهم الفاعلون حقيقة لهذه الافعال بمحض اختيارهم وانهم لهذا يستحقون عليها الجزاء اما بالمدح والمثوبة واما بالذم والعقوبة وان نسبة هذه الافعال الى العباد فعلا لا ينافى نسبتها الى الله ايجادا وخلقا لانه هو الخالق لجميع الاسباب التى وقعت بها .

وضل فى القدر طائفتان كما تقدم (الطائفة الاولى) القدرية نفاة القدر الذين هم مجوس هذه الامة كما ورد ذلك فى بعض الاحاديث مرفوعا وموقوفا وهؤلاء ضلوا بالتفريط وانكار القدر وزعموا أنه

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ القَدَرِيَّةِ الذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ. وَيَغلُو فِيهَا قَومٌ مِن أَهلِ الإِثبَاتِ حَتَّى سَلَبُوا العَبدَ قُدرَتَهُ وَاختِيَارَهُ وَيُخرِجُونَ عَن أَفعَالِ اللهِ وَأَحكَامِهِ حُكمَهَا وَمَصَالِحَهَا .

(فَصْـــلٌ)

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَولٌ وَعَمَلٌ. قَولُ القَلبِ وَاللِّسَانِ ، وَعَمَلُ القَلبِ وَاللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ ، وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنقُصُ بِالمَعصِيَةِ ، وَهُم مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهلَ القِبلَةِ بِمُطلَقِ المَعَاصِي وَالكَبَائِرِ كَمَا يَفعَلُهُ الخَوَارِجُ بَل الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي

لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد فى فعله ومسئوليته عنه ، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى مشيئته لان ذلك العموم فى زعمهم ابطال لمسئولية العبد عن فعله وهدم للتكاليف فرجحوا جانب الامر والنهى وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشيئة بما عدا افعال العباد واثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وارادته ، فاثبتوا خالقين غير الله ولهذا سموا مجوس هذه الامة ، لان المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والاشياء المؤذية ، فجعلوه خالقا مع الله ، فكذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله .

(والطائفة الثانية) يقال لها الجبرية وهؤلاء غلوا فى اثبات القدر حتى انكروا ان يكون للعبد فعل حقيقة بل هو فى زعمهم لا حرية له ولا اختيار ولا فعل كالريشة فى مهب الرياح وانما تسند الافعال اليه مجازا فيقال صلى وصام وقتل وسرق كما يقال طلعت الشمس وجرت الريح ونزل المطر . فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم ، واتهموه بالعبث فى

كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (فَمَن عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ) وَقَالَ (وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى . فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

تكليف العباد وابطلوا الحكمة من الامر والنهى الا ساء ما يحكمون .
سبق ان ذكرنا فى مسالة الاسماء والاحكام ان اهل السنة والجماعة يعتقدون ان الايمان قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالاركان وان هذه الثلاثة داخلة فى مسمى الايمان المطلق . فالايمان المطلق يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه اصوله وفروعه ، فلا يستحق اسم الايمان المطلق الا مع جمع ذلك كله ولم ينقص منه شيئا .

ولما كانت الاعمال والاقوال داخلة فى مسمى الايمان كان الايمان قابلا للزيادة والنقص ، فهو يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية كما هو صريح الادلة من الكتاب والسنة وكما هو ظاهر مشاهد من تفاوت المؤمنين فى عقائدهم واعمال قلوبهم واعمال جوارحهم .

ومن الادلة على زيادة الايمان ونقصه أن الله قسم المؤمنين ثلاث طبقات فقال سبحانه (ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله) فالسابقون بالخيرات هم الذين أدوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات وهؤلاء هم المقربون . والمقتصدون هم الذين اقتصروا على أداء الواجبات وترك المحرمات . والظالمون لانفسهم هم الذين اجترأوا على بعض المحرمات وقصروا ببعض الواجبات مع بقاء اصل الايمان معهم .

ومن وجوه زيادته ونقصه كذلك ان المؤمنين متفاوتون فى علوم الايمان فمنهم من وصل اليه من تفاصيله وعقائده خير كثير فازداد به

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ) ولا يسلبون الفَاسِقَ المِلِيَّ الإسلامَ بالكُلِّيَّةِ وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ كَمَا تَقُولُ المعتزلةُ بَل الفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ كَمَا فِي قَولِهِ (فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ) وَقَد

ايمانه وتم يقينه ومنهم من هو دون ذلك حتى يبلغ الحال ببعضهم ان لا يكون معه الا ايمان اجمالى لم يتيسر له من التفاصيل شيء ، وهو مع ذلك مؤمن . وكذلك هم متفاوتون فى كثير من اعمال القلوب والجوارح وكثرة الطاعات وقلتها .

واما من ذهب الى ان الايمان مجرد التصديق بالقلب وانه غير قابل للزيادة او النقص كما يروى عن ابى حنيفة وغيره فهو محجوج بما ذكرنا من الادلة قال عليه السلام (الايمان بضع وسبعون شعبة اعلاها قول لا اله الا الله وادناها اماطة الاذى عن الطريق) ومع أن الايمان المطلق مركب من الاقوال والاعمال والاعتقادات فهى ليست كلها بدرجة واحدة ، بل العقائد اصل فى الايمان فمن انكر شيئا مما يجب اعتقاده فى الله او ملائكته أو كتبه او رسله أو اليوم الآخر أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة الزنا والقتل الخ فهو كافر قد خرج من الايمان بهذا الانكار .

واما الفاسق الملى الذى يرتكب بعض الكبائر مع اعتقاده حرمتها فاهل السنة والجماعة لا يسلبون عنه اسم الايمان بالكلية ولا يخلدونه فى النار كما تقول المعتزلة والخوارج بل هو عندهم مؤمن ناقص الايمان قد نقص من ايمانه بقدر معصيته او هو مؤمن فاسق فلا يعطونه اسم الايمان المطلق ولا يسلبونه مطلق الايمان .

وادلة الكتاب والسنة دالة على ما ذكره المؤلف رحمه الله من ثبوت مطلق الايمان مع المعصية قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم اولياء) فناداهم باسم الايمان مع وجود

لَا يَدخُلُ فِي اسمِ الإِيمَانِ المُطلَقِ كَمَا فِي قَولِهِ تَعَالَى (إِنَّمَا المُؤمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَت قُلُوبُهُم وَإِذَا تُلِيَت عَلَيهِم آيَاتُهُ زَادَتهُم إِيمَاناً) وَقَولِه صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ (لَا يَزنِي الزَّانِي حِينَ يَزنِي وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسرِقُ وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَشرَبُ الخَمرَ حِينَ يَشرَبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ ، وَلَا يَنتَهِبُ نهبَةً ذاتَ شَرَفٍ يَرفَعُ النَّاسُ إِلَيهِ فِيهَا أَبصَارَهُم حِينَ يَنتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤمِنٌ) .

وَنَقُولُ هُوَ مُؤمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ ، أَو مُؤمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ ، فَلَا يُعطَى الاسمَ المطلَقَ وَلَا يُسلَبُ مُطلَقَ الاسم .

(فَصــــلٌ)

« وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِم وَأَلسِنَتِهِم لِأَصحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُم اللهُ بِهِ فِي قَولِهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلِإِخوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجعَل فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ

المعصية وهى موالاة الكفار منهم الخ .

(فائــدة) الايمان والاسلام الشرعيان متلازمان فى الوجـود فلا يوجد احدهما بدون الاخر بـل كلما وجد ايمان صحيح معتد بـه وجد معه اسلام وكذلك العكس ولهذا قد يستغنى بذكر أحدهما عـن الاخر لان احدهما اذا افرد بالذكر دخل فيه الاخر وأما اذا ذكرا معـا مقترنين اريد بالايمان التصديق والاعتقاد واريد بالاسلام الانقيــاد الظاهرى من الاقرار باللسان وعمل الجوارح . ولكن هذا بالنسبة الـى مطلق الايمان أما الايمان المطلق فهو اخص مطلقا من الاسلام وقـد يوجد الاسلام بدونه كما فى قوله تعالى (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا) فاخبر باسلامهم مع نفى الايمان عنهم . وفى حديث جبريل ذكر المراتب الثلاث الاسلام والايمان والاحسان فدل

رَحِيمٌ) وَطَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فِي قَولِهِ لاَ تَسُبُّوا أَصحَابِي فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَو أَنَّ أَحَدَكُم أَنفَقَ مِثلَ أُحُدٍ ذَهَباً مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلاَ نَصِيفَهُ) وَيَقبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِم وَمَرَاتِبِهِم وَيُفَضِّلُونَ مَن أَنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وَهُوَ صُلحُ الحُدَيبِيَةِ وَقَاتَلَ عَلَى مَن أَنفَقَ مِن بَعدُ وَقَاتَلَ ، وَيُقَدِّمُونَ المُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنصَارِ وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ لِأَهلِ بَدرٍ

على ان كلا منها اخص مما قبلـه

يقول المؤلف ان من اصول اهل السنة والجماعة التى فارقوا بها من عداهم من اهل الزيغ والضلال انهم لا يزرون بأحد من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يطعنون عليه ولا يحملون له حقدا ولا بغضا ولا احتقارا فقلوبهم والسنتهم من ذلك كله براء ولا يقولون فيهم الا ما حكاه الله عنهم بقوله (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الآية . فهذا الدعاء الصادر ممن جاء بعدهم ممن اتبعوهم باحسان يدل على كمال محبتهم لاصحاب رسول الله وثنائهم عليهم وهم اهل لذلك الحب والتكريم لفضلهم وسبقهم وعظيم سابقتهم واختصاصهم بالرسول صلى الله عليه وسلم ولاحسانهم الى جميع الامة لانهم هم المبلغون لهم جميع ما جاء به نبيهم فما وصل لاحد علم ولا خبر الا بواسطتهم وهم يوقرونهم ايضا طاعة للنبى صلى الله عليه وسلم حيث نهى عن سبهم والنغض منهم ، وبين ان العمل القليل من احد اصحابه يفضل العمل الكثير من غيرهم وذلك لكمال اخلاصهم وصادق ايمانهـــم .

واما قوله (ويفضلون من أنفق من قبل الفتح ــ وهو صلح الحديبية ــ وقاتل ، على من انفق من بعده وقاتل) فقد ورد النص القرآنى بذلك قال تعالى فى سورة الحديد (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله

وَكَانُوا ثَلَاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَر « اعمَلُوا مَاشِئتُم فَقَد غَفَرتُ لَكُم » وَبِأَنَّهُ لَا يَدخُلُ النارَ أَحدٌ بَايَعَ تَحتَ الشَّجَرَةِ كَمَا أَخبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ . بَل لَقَد رَضِيَ اللهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنهُ وَكَانُوا اكثرَ مِن أَلفٍ وَأَربَعمِائَةٍ وَيَشهَدُونَ بِالجَنَّةِ لِمَن شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ كَالعَشَرَةِ وَثَابِتِ بنِ قَيسِ بنِ شَمَّاسٍ وَغَيرِهِم مِنَ الصَّحَابَةِ .

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقلُ عَن أَمِيرِ المُؤمِنِينَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ وَغَيرِهِ مِن أَنَّ خَيرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكرٍ ثُمَّ عُمَرُ وَيُثَلِّثُونَ بِعُثمَانَ وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُم، دَلَّت عَلَيهِ الآثَارُ وَكَمَا أَجمَعَ —

الحسنى) واما تفسير الفتح بصلح الحديبية فذلك هو المشهور وقد صح ان سورة الفتح نزلت عقيبه . وسمى هذا الصلح فتحا لما ترتب عليه من نتائج بعيدة المدى فى عزة الاسلام وقوته وانتشاره ودخول الناس فيه .

واما قوله (ويقدمون المهاجرين على الانصار) فلان المهاجرين جمعوا الوصفين النصرة والهجرة ، ولهذا كان الخلفاء الراشدون وبقية العشرة من المهاجرين وقد جاء القرآن بتقديم المهاجرين على الانصار فى سورة التوبة والحشر وهذا التفضيل انما هو للجملة على الجملة فلا ينافى أن فى الانصار من هو افضل من بعض المهاجرين .

وقد روى عن ابى بكر انه قال فى خطبته يوم السقيفة (نحن المهاجرون واول الناس اسلاما اسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم فنحن الامراء وأنتم الوزراء) .

واما قوله (ويؤمنون بأن الله قال لاهل بدر الخ) فقد ورد أن عمر رضى الله عنه لما اراد قتل حاطب بن ابى بلتعة وكان قد شهد بدرا لكتابته كتابا الى قريش يخبرهم فيه بمسير الرسول صلى الله عليه

الصَّحَابَةُ عَلَى تَقدِيمِ عُثمَانَ فِي البَيعَةِ مَعَ أَنَّ بَعضَ أَهلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَد اختَلَفُوا فِي عُثمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا — بَعدَ اتِّفَاقِهِم عَلَى تَقدِيمِ أَبِي بَكرٍ وَعُمَر — أَيُّهُمَا أَفضَلُ ؟ فَقَدَّمَ قَومٌ عُثمَانَ وَسَكَتُوا وَرَبَّعُوا بِعَلِيٍّ.وَقَدَّمَ قَومٌ —

وسلم فقال له الرسول « وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على اهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكسم » .

واما قوله « وبانه لا يدخل النار احد بايع تحت الشجرة الخ » فلاخباره صلى الله عليه وسلم بذلك ولقوله تعالى « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية . فهذا الرضى مانع من ارادة تعذيبهم ومستلزم لاكرامهم ومثوبتهم .

واما قوله ويشهدون بالجنة لمن شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم كالعشرة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم من الصحابة) أما العشرة فهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد بن ابى وقاص وسعيد بن زيد وعبد الرحمن بن عوف وابو عبيدة بن الجراح ، واما غيرهم فكثابت بن قيس وعكاشة بن محصن وعبد الله بن سلام وكل من ورد الخبر الصحيح بانه من اهل الجنة .

واما قوله (ويؤمنون بما تواتر به النقل عن أمير المؤمنين علسى ابن ابى طالب وغيره من ان خير هذه الامة بعد نبيها ابو بكر وعمر فقد ورد أن عليا رضى الله عنه قال ذلك على منبر الكوفة وسمعه منه الجم الغفير وكان يقول (مامات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علمنا ان افضلنا بعده ابو بكر وما مات ابو بكر حتى علمنا ان افضلنا بعده عمسر) .

واما قوله (ويثلثون ويربعون بعلى الخ) فمذهب جمهور اهل السنة ان ترتيب الخلفاء الراشدين فى الفضل على حسب ترتيبهم

عَلِيّاً وَقَومٌ تَوَقَّفُوا ، لِكن استَقَرَّ أَمرُ أَهلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقدِيمِ عُثمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ المَسْأَلَةُ ـ مَسأَلَة عُثمَانَ وَعَلِيٍّ لَيسَتْ مِن الأصُولِ التي يُضَلَّلُ المُخَالِفُ فِيهَا عِندَ جُمهُورِ أَهلِ السنَّة لِكن التي يُضَلَّلُ فِيها مَسْأَلَةُ الخِلافَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُم يُؤمِنُونَ أَنَّ الخَلِيفَةَ بَعدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَبو بَكرٍ وَعُمَرَ ثُمَّ عُثمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ وَمَن طَعَنَ فِي خِلافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلاءِ فَهُوَ أَضَلُّ مِن حِمَارِ أَهلِهِ .

وَيُحِبُّونَ أَهلَ بَيتِ رَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم وَيَتَوَلَّونَهُم وَيَحفَظُونَ فِيهِم وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ حَيثُ قَالَ يَومَ غَدِيرِ خُمٍّ (أُذَكِّرُكُمُ اللّهَ فِي آهلِ بَيتِي)

فى الخلافة وهم لهذا يفضلون عثمان عَلَى عَلِيٍّ محتجِّين بتقديم الصحابة عثمان فى البيعة عَلَى عَلِيٍّ وبعض اهل السنة يفضل عليا لانه يرى ان ما ورد من الآثار فى مزايا عَلِيٍّ ومناقبه اكثر . وبعضهم يتوقف فى ذلك وعلى كل حال فمسالة التفضيل ليست كما قال المؤلف من مسائل الاصول التى يضلل فيها المخالف وانما هى مسالة فرعية يتسع لها الخلاف ، واما مسالة الخلافة فيجب الاعتقاد بأن خلافة عثمان كانت صحيحة لانها كانت بمشورة من الستة الذين عينهم عمر رضى الله عنه ليختاروا الخليفة من بعده ، فمن زعم أن خلافة عثمان كانت باطلة وأن عَلياً كان أحق بالخلافة منه فهو مبتدع ضال يغلب عليه التشيع مع ما فى قوله من ازراء بالمهاجرين والانصار .

اهل بيته صلى الله عليه وسلم هم من تحرم عليهم الصدقة وهم آل عَلِيٍّ وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس وكلهم من بنى هاشم ويلحق بهم بنو المطلب لقوله عليه السلام (انهم لم يفارقونا جاهلية ولا اسلاما) فاهل السنة والجماعة يرعون لهم حرمتهم وقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحبونهم لاسلامهم وسبقهم وحسن بلائهم فى نصرة دين الله عز وجل . وغدير خم (بضم الخاء) قيل اسم رجل صباغ اضيف

وَقَالَ أَيضاً لِلعَبَّاسِ عَمِّهِ . وَقَد اشتَكَى إِلَيهِ أَنَّ بَعضَ قُرَيشٍ يَجفُو بَنِي هَاشِمٍ — فَقَالَ (وَالذِي نَفسِي بِيَدِهِ لاَ يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُم لِلهِ وَلِقَرَابَتِي) وَقَالَ (إِنَّ اللّهَ اصطَفَى بَنِي إِسمَاعِيلَ وَاصطَفَى مِن بَنِي إِسمَاعِيلَ كِنَانَةَ وَاصطَفَى مِن كِنَانَةَ قُرَيشاً وَاصطَفَى مِن قُرَيشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصطَفَانِي مِن بَنِي هَاشِمٍ) .

وَيَتَوَلَّونَ أَزوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ المُؤمِنِينَ وَيُؤمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ خُصُوصاً خَدِيجَة رَضِيَ اللّهُ عَنهَا أُمّ أَكثَرِ أَولاَدِهِ وَأَوَّل مَن آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمرِهِ وَكَانَ لَهَا مِنهُ المَنزِلَةُ

اليه الغدير الذى بين مكة والمدينة بالجحفة . وقيل خم اسم غيضة هناك نسب اليها الغدير ، والغيضة الشجر الملتف .

واما قوله عليه السلام لعمه (والذى نفسى بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لله ولقرابتى) فمعناه لا يتم ايمان احد حتى يحب اهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لله أولا لانهم من اوليائه واهل طاعته الذين تجب محبتهم وموالاتهم فيه . وثانيا لمكانهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم واتصال نسبهم به .

ازواجه صلى الله عليه وسلم هن من تزوجهن بنكاح فاولهن خديجة بنت خويلد رضى الله عنها تزوجها بمكة قبل البعثة وكانت سنه خمسا وعشرين وكانت هى تكبره بخمسة عشر عاما ولم يتزوج عليها حتى توفيت وقد رزق منها بكل اولاده الا ابراهيم وكانت اول من آمن به وقواه على احتمال اعباء الرسالة وقد ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين من خمس وستين سنة فتزوج بعدها سودة بنت زمعة وعقد على عائشة رضى الله عنها وكانت بنت ست سنين حتى اذا هاجر الى المدينة بنى بها وهى بنت تسع . ومن زوجاته ايضا ام سلمة رضى الله عنها تزوجها بعد زوجها ابى سلمة وزينب بنت جحش تزوجها بعد تطليق

العَالِيَةُ ، وَالصِّدِّيقَة بنت الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنهَا التِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : (فَضلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ) .

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِن طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الذِينَ يُبغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُم، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الذِين يُؤذُونَ أَهلَ البَيتِ بِقَولٍ أَو عَمَلٍ وَيُمسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَينَ الصَّحَابَةِ وَيَقُولُونَ إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ المَروِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِم مِنهَا مَا هُوَ كَاذِبٌ وَمِنهَا مَا قَد زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَن وَجهِهِ وَالصَّحِيحُ مِنهُ هُم فِيهِ مَعذُورُونَ إِمَّا مُجتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا مُجتَهِدُونَ مُخطِئُونَ وَهُم مَعَ ذَلِكَ لاَ يَعتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعصُومٌ عَن كَبَائِرِ الاثمِ وَصَغَائِرِهِ ، بَل يَجُوزُ عَلَيهِم الذُّنُوبُ فِي الجُملَةِ وَلَهُم مِنَ السَّوَابِقِ وَالفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغفِرَةَ مَا يَصدُرُ مِنهُم إِن صَدَرَ حَتَّى إِنَّهُم يُغفَرُ لَهُم السَّيِّئَاتُ مَا لاَ يُغفَرُ لِمَن بَعدَهُم لِأَنَّ لَهُم مِنَ الحَسَنَاتِ التِي تَمحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمَن بَعدَهُم .

وَقَد ثَبَتَ بِقَولِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُم خَيرُ القُرُونِ وَأَنَّ المُدَّ مِن أَحَدِهِم إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفضَلَ مِن جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَباً مِمَّن بَعدَهُم

زيد ابن حارثة لها او على الاصح زوجه الله اياها . وجويرية بنت الحارث وصفية بنت حُيَي وحفصة بنت عمر وزينب بنت خزيمة وكلهن امهات المؤمنين ، ومن ازواجه صلى الله عليه وسلم فى الآخرة وافضلهن على الاطلاق خديجة وعائشة رضى الله عنهما .

يريد ان اهل السنة والجماعة يتبرؤون من طريقة الروافض التى هى الغلو فى عَلِيّ واهل بيته وبغض مَنْ عداه من كبار الصحابة وسبهم وتكفيرهم . واول من سماهم بذلك زيد بن عَلِيّ رحمه الله لانهم لما طلبوا منه ان يتبرأ من امامة الشيخين ابى بكر وعمر ليبايعوه ابى ذلك فتفرقوا عنه فقال رفضتمونى ، فمن يومئذ قيل لهم رافضة . وهم

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَد صَدَرَ مِن أَحَدِهِم ذَنبٌ فَيَكُونُ قَد تَابَ مِنهُ أَو أَتَـى بِحَسَنَاتٍ تَمحُوهُ أَو غُفِرَ لَهُ بِفَضلِ سَابِقَتِهِ أَو بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ الذِي هُم أَحَقُّ النَاسِ بِشَفَاعَتِهِ أَو ابتُلِيَ بِبَلاَءٍ فِي الدُّنيَا كُفِّرَ بِهِ عَنهُ . فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ المُحَقَّقَةِ فَكَيفَ الأُمُورَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجتَهِدِينَ إِن أَصَابُوا فَلَهُم أَجرَانِ وَإِن أَخطَأُوا فَلَهُم أَجرٌ وَاحِدٌ وَالخَطَأُ مَغفُـــورٌ .

فرق كثيرة منهم الغالية ومنهم دون ذلك .

ويتبرؤون كذلك من طريقـــة النواصب الذين ناصبوا اهـل بيت النبوة العداء لاسباب وامور سياسية معروفة ولم يعد لهـــؤلاء وجـــود الآن .

ويمسك اهل السنة والجماعة عن الخوض فيما وقع من نزاع بين الصحابة رضى الله عنهم لاسيما ما وقع بين عَلِيّ وطلحة والزبير بعد مقتل عثمان وما وقع بعد ذلك بين عَلِيّ ومعاوية وعمرو بن العاص وغيرهم ويرون ان الآثار المروية فى مساويهم اكثرها كذب او محرف عن وجهه ، واما الصحيح منها فيعذرونهم فيه ويقولون انهم متأولون مجتهدون ، وهم مع ذلك لا يدعون لهم العصمة من كبـار الذنوب وصغارها ولكـــن ما لهم من السوابق والفضائل وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه قد يوجب مغفرة ما يصدر منهم من زلات فهم بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير القرون وافضلها ومُدّ احدهم أو نصيفه افضل من جبل أُحُدٍ ذهبا يتصدق به من بعدهم فسيئاتهم مغفورة الى جانب حسناتهم الكثيرة .

يريد المؤلف رحمه الله ان ينفى عن الصحابة رضى الله عنهم ان يكون احدهم قد مات مصرا على ما يوجب سخط الله عليه من الذنوب بل اذا كان قد صدر الذنب من احدهم فعلا فلا يخلو عن احد هذه

ثُمَّ إِنَّ الْقَدَرَ الَّذِي يُنكَرُ مِن فِعلِ بَعضِهِم قَلِيلٌ نَزرٌ مَغفُورٌ فِي جَنبِ فَضَائِلِ الْقَومِ وَمَحَاسِنِهِم مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ وَالهِجرَةِ وَالنُّصرَةِ وَالعِلمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَمَن نَظَرَ فِي سِيرَةِ القَومِ بِعِلمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيهِم بِهِ مِنَ الفَضَائِلِ عَلِمَ يَقِيناً أَنَّهُم خَيرُ الخَلقِ بَعدَ الأَنبِيَاءِ . لاَ كَانَ وَلاَ يَكُونُ مِثلُهُم ، وَأَنَّهُم الصَّفـوَةُ مِن قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيرُ الأُمَمِ وَأَكرَمُهَا عَلَى اللهِ .

وَمِن أُصُولِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالتَّصدِيقِ بِكَرَامَاتِ الأَولِيَاءِ وَمَا يُجرِي اللهُ عَلَى أَيدِيهِم مِن خَوَارِقِ العَادَاتِ .

الامور التى ذكرها فاما أن يكون قد تاب منه قبل الموت او اتـى بحسنات تذهبه وتمحوه او غفر له بفضل سابقته فى الاسلام كما غفر لاهل بدر واصحاب الشجرة أو بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم اسعد الناس بشفاعته واحقهم بها او ابتلى ببلاء فى الدنيا فى نفسه او ماله أو ولده فكفر عنه به . فاذا كان هذا هو ما يجب اعتقاده فيهم بالنسبة الى ما ارتكبوه من الذنوب المحققة فكيف فى الامور التـى هى موضع اجتهاد والخطا فيها مغفور ، ثم اذا قيس هذا الـذى اخطأوا فيه الى جنب ما لهم من محاسن وفضائل لم يعد ان يكـون قطرة فى بحر . فالله الذى اختار نبيه صلى الله عليه وسلم هو الذى اختار له هؤلاء الاصحاب ، فهم خير الخلق بعد الانبياء والصفوة المختارة من هذه الامة التى هى افضل الامم .

ومن تامل كلام المؤلف رحمه الله فى شان الصحابة عجب اشد العجب مما يرميه به الجهلة المتعصبون وادعائهم عليه انه يتهجم على اقدارهم ويغض من شانهم ويخرق اجماعهم الى آخر ما قالوه مـن مزاعم ومفتريـات .

وقد تواترت نصوص الكتاب والسنة ، ودلت الوقائع قديمـا

فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ وَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الْأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ فِرَقِ الْأُمَّةِ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

وحديثا على وقوع كرامات لله لاوليائه المتبعين لهدى انبيائهم ، والكرامة امر خارق للعادة يجريه الله على يد ولى من اوليائه معونة له على امر دينى او دنيوى ، ويفرق بينها وبين المعجزة بان المعجزة تكون مقرونة بدعوى الرسالة بخلاف الكرامة .

ويتضمن وقوع هذه الكرامات حكم ومصالح كثيرة اهمها :

اولا : انها كالمعجزة تدل اعظم دلالة على كمال قدرة الله ونفوذ مشيئته ، وانه فعال لما يريد ، وان له فوق هذه السنن والاسباب المعتادة سننا اخرى لا يقع عليها علم البشر ، ولا تدركها اعمالهم . فمن ذلك قصة اصحاب الكهف ، والنوم الذى اوقعه الله بهم تلك المدة الطويلة مع حفظه تعالى لابدانهم من التحلل والفناء . ومنها ما اكرم الله به مريم بنت عمران من ايصال الرزق اليها وهى فى المحراب حتى عجب من ذلك زكريا عليه السلام ، وسالها : انى لك هذا ، وكذلك حملها بعيسى بلا اب وولادتها اياه ، وكلامه فى المهد وغير ذلك .

ثانيا : ان وقوع كرامات الاولياء هو فى الحقيقة معجزة للانبياء ، لان تلك الكرامات لم تحصل لهم الا ببركة متابعتهم لانبيائهم وسيرهم على هديهم .

ثالثا : ان كرامات الاولياء هى البشرى التى عجلها الله لهم فى الدنيا فان المراد بالبشرى كل امر يدل على ولايتهم وحسن عاقبتهم ومن جملة ذلك الكرامات .

(فَصْـــلٌ)

ثُمَّ مِن طَرِيقَةِ أَهلِ السُّنَّةِ وَالجَماعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ بَاطِناً وَظاهِراً وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ حَيثُ قَالَ: عَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المهدِيِّينَ مِن بَعدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُم وَمُحدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ . وَيَعلَمُونَ أَنَّ أَصدَقَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ وَخَيرَ الهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَيُؤثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيرِهِ مِن كَلَامِ أَصنَافِ النَّاسِ ، وَيُقَدِّمُونَ هُدَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ عَلَى هُدَى كُلِّ أَحَدٍ ، وَلِهَذَا سُمُّوا أَهلَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَسُمُّوا أَهلَ الجَمَاعَةِ لِأَنَّ الجَمَاعَةَ هِيَ الإِجمَاعُ وَضِدَّهَا الفُرقَةُ ، وَإِن كَانَ لَفظُ الجَمَاعَةِ قَد صَارَ اسماً لِنَفسِ القَومِ المُجتَمِعِينَ ، وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصلُ الثَّالِثُ الذِي يُعتَمَدُ عَلَيهِ فِي العِلمِ وَالدِّينِ ، وَهُم يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيهِ النَّاسُ مِن أَقوَالٍ وَأَعمَالٍ بَاطِنَةٍ أَو ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجمَاعُ الذِي يَنضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ إِذ بَعدَهُم كَثُرَ الاختِلَافُ وَانتَشَرَ فِي الأُمَّةِ .

هذا ولم تزل الكرامات موجودة لم تنقطع فى هذه الامة الى يوم القيامة والمشاهدة اكبر دليل ، وانكر الفلاسفة كرامات الاولياء كما أنكروا معجزات الانبياء ، وانكر الكرامات ايضا المعتزلة وبعض الاشاعرة بدعوى التباسها بالمعجزة ، وهى دعوى باطلة ، لان الكرامة كما قلنا لا تقترن بدعوى الرسالة .

لكن يجب التنبه الى ان ما يقوم به الدجاجلة والمشعوذون من اصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون انفسهم بالمتصوفة من اعمال ومخاريق شيطانية كدخول النار وضرب انفسهم بالسلاح والامساك بالثعابين والاخبار بالغيب الى غير ذلك ليس من الكرامات فى شىء

(فصـــل)

ثمّ هُم مَعَ هذِهِ الأُصُولِ يَأمُرُونَ بِالمعرُوفِ وَيَنهَونَ عَنِ المُنكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ ، وَيَرَونَ إِقَامَةَ الحَجِّ وَالجِهَادِ وَالجُمَعِ وَالأَعيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبرَاراً كَانُوا أَو فُجَّاراً . وَيُحَافِظُونَ عَلَى الجَمَاعَاتِ وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ وَيَعتَقِدُونَ مَعنَى قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « المُؤمِنُ لِلمُؤمِنِ كَالبُنيَانِ يَشُدُّ بَعضُهُ بَعضاً » وَشَبَّكَ بَينَ أَصَابِعِهِ . وَقَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « مَثَلُ المُؤمِنِينَ فِي تَوَادِّهِم وَتَرَاحُمِهِم وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجَسَدِ إِذَا اشتَكَى مِنهُ عُضوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ » وَيَأمُرُونَ بِالصَّبرِ عِندَ البَلَاءِ وَالشُّكرِ عِندَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ القَضَاءِ وَيَدعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخلَاقِ وَمَحَاسِنِ الأَعمَالِ وَيَعتَقِدُونَ مَعنَى قَولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « أَكمَلُ المُؤمِنِينَ إِيمَاناً أَحسَنُهُم خُلُقاً » وَيَندُبُونَ إِلَى أَن تَصِلَ مَن قَطَعَكَ ، وَتُعطِي مَن حَرَمَكَ ،

فان الكرامة انما تكون لاولياء الله بحق وهؤلاء اولياء الشيطان .

قوله (ثم من طريقة اهل السنة الخ) هذا بيان لمنهج اهل السنة والجماعة فى استنباط الاحكام الدينية كلها ، اصولها وفروعها بعد طريقتهم فى مسائل الاصول — وهذا المنهج يقوم على اصول ثلاثة : اولها — كتاب الله عز وجل الذى هو خير الكلام واصدقه ، فهم لا يقدمون على كلام الله كلام أحد من الناس . وثانيها — سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما اثر عنه من هدى وطريقة لا يقدمون على ذلك هدى أحد من الناس . وثالثها — ما وقع عليه اجماع الصدر الاول من هذه الامة قبل التفرق والانتشار وظهور البدعة والمقالات ، وما جاءهم بعد ذلك مما قاله الناس وذهبوا اليه من المقالات ووزنوها بهذه الاصول الثلاثة التى هى الكتاب والسنة والاجماع ، فان وافقها قبلوه وان خالفها ردوه ايا كان قائله وهذا هو المنهج الوسط والصراط المستقيم

وَتعفو عَمَّن ظَلَمَكَ ، وَيامُرُونَ بِبِرِّ الوَالِدَينِ وَصِلَةِ الأَرحَامِ وَحُسنِ الجِوَارِ وَالإِحسَانِ إِلَى اليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَابنِ السَّبِيلِ وَالرِّفقِ بِالمَملُوكِ وَيَنهَونَ عَنِ الفَخرِ وَالخُيَلَاءِ وَالبَغيِ وَالاستِطَالَةِ عَلَى الخَلقِ بِحَقٍّ أو بِغَيرِ حَقٍّ وَيَامُرُونَ بِمَعَالِي الأَخلَاقِ وَيَنهَونَ عَن سَفسَافِهَا وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفعَلُونَهُ مِن هَذَا وَغَيرِهِ فَإِنَّمَا هُم فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَطَرِيقَتُهُم هِيَ دِينُ الإِسلَامِ الذي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لَكِن لَمَّا أَخبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبعِينَ فِرقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةٌ وَهِيَ الجَمَاعَةُ . وَفِي حَدِيثٍ عَنهُ أَنَّهُ قَالَ « هُم مَن كَانَ عَلَى مِثلِ مَا أَنَا عَلَيهِ اليومَ وَأَصحَابِي » صَارَ المُتَمَسِّكُونَ بِالإِسلَامِ المَحضِ الخَالِصِ عَنِ الشَّوبِ ، هُــم أَهلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ،

الذى لا يضل سالكه ولا يشقى من اتبعه ، وسط بين من يتلاعب بالنصوص فيتأول الكتاب وينكر الاحاديث الصحيحة ولا يعبأ باجماع السلف ، وبين من يخبط خبط عشواء فيتقبل كل راى ويأخذ بكل قول لا يفرق فى ذلك بين غث وسمين وصحيح وسقيم .

قوله (ثم هم مع هذه الأصول الخ) جمع المؤلف فى هذا الفصل جُمَّاع مكارم الاخلاق التى يتخلق بها أهل السنة والجماعة من الامر بالمعروف وهو ما عرف حسنه بالشرع والعقل والنهى عن المنكـر وهو كل قبيح عقلا وشرعا على حسب ما توجبه الشريعة من تلك الفريضة كما يفهم من قوله عليه السلام « من راى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعـف الايمان » ومن شهود الجمع والجماعات والحج والجهاد مع الامراء ايا كانوا لقوله عليه السلام « صلوا خلف كل بر وفاجر » ومن النصح لكل مسلم لقوله عليه السلام « الدين النصيحة » ومن فهم صحيح لما توجبه الاخوة الايمانية من تعاطف وتواد وتناصر كما فى هذه الاحاديث التى يشبه فيها الرسول المؤمنين بالبنيان المرصوص المتماسك

وَفِيهِم الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ ، وَمِنهُم أَعلاَمُ الهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى أُولُو المَنَاقِبِ المَأثُورَةِ وَالفَضَائِلِ المَذكُورَةِ ، وَفِيهِم الأَبدَالُ ، وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ الذِينَ أَجمَعَ المُسلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِم ، وَهُم الطَّائِفَةُ المَنصُورَةُ الذِينَ قَالَ فِيهِم النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنصُورَةٌ لاَ يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم وَلاَ مَن خَذَلَهُم حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » .

نَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنَا مِنهُم وَأَن لاَ يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعدَ إِذ هَدَانَا وَأَن يَهَبَ لَنَا مِن لَدُنهُ رَحمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ ، وَاللهُ أَعلَمُ .

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحبِهِ وَسَلَّمَ تَسلِيماً كَثِيراً .

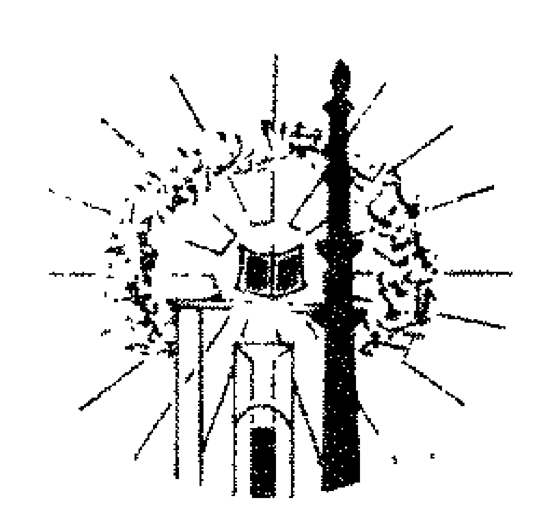
للبنيان او بالجسد المترابط الاعضاء ومن دعوة الى الخير والى مكارم الاخلاق ، فهم يدعون الى الصبر على المصائب والشكر على النعماء والرضا بقضاء الله وقدره الى غير ذلك مما نكره .

واما قوله (وفيهم الصديقون الخ) فالصديق صيغة مبالغة من الصدق يراد به الكثير التصديق وابو بكر رضى الله عنه هو الصديق الاول لهذه الامة ، واما الشهداء فهو جمع شهيد وهو من قتل فى المعركة ، واما الابدال فهم جمع بدل وهم الذين يخلف بعضهم بعضا فى تجديد هذا الدين والدفاع عنه كما فى الحديث « يبعث الله لهذه الامة على راس كل مئة سنة من يجدد لها امر دينها » والله اعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

الفهرس

دار الإعتصــــام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة



من مطبوعات الجامعة الإسلامية
بالمدينة المنورة

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة